الدُّرَرُ السَّنِيَّةُ في الأجوبةِ النَّجْدِيَّة

وقال الشيخ : **سليمان بن الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد , رحمهم الله تعالى .**

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم رحمك الله : أن الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم ، خوفاً منهم ومدارة لهم , ومداهنة لدفع شرهم , فإنه كافر مثلهم ؛ وإن كان يكره دينهم ويبغضهم , ويحب الإسلام والمسلمين , وهذا إذا لم يقع منه إلا ذلك , فكيف إذا كان في دار مَنَعَة واستدعى بهم , ودخل في طاعتهم وأظهر الموافقة على دينهم الباطل , وأعانهم عليه بالنصرة والمال ووالاهم , وقطع الموالاة بينه وبين المسلمين , وصار من جنود القباب والشرك وأهلها ؛ بعد ما كان من جنود الإخلاص والتوحيد وأهله .
فإن هذا لا يشك مسلم أنه كافر , من أشد الناس عداوة لله ولرسوله , ولا يستثني من ذلك إلا المكره , وهو الذي يستولي عليه المشركين , فيقول له : أكفر أو افعل كذا و إلا فعلنا بك وقتلناك ، أو يأخذونه فيعذبوه حتى يوافقهم ، فيجوز له الموافقة باللسان مع طمأنينة القلب بالإيمان ، وقد أجمع العلماء على أن من تكلم بالكفر هازلاً : أنه يكفر ، فكيف بمن أظهر الكفر خوفاً

وطمعاً في الدنيا , وأنا أذكر بعض الأدلة على ذلك بعون الله وتأييده .
الدليل الأول : قوله تعالى : {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم } فأخبر تعالى أن اليهود والنصارى , وكذلك المشركين ، لا يرضون عن النبي حتى يتبع ملتهم ويشهد أنهم على حق , ثم قال تعالى : {قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير } [البقرة : 120] وفي الآية الأخرى {إنك إذاً لمن الظالمين} [البقرة : 145] .
فإن كان النبي لو يوافقهم على دينهم ظاهراً من غير عقيدة القلب , لكن خوفاً من شرهم ومداهنة , كان من الظالمين , فكيف بمن اظهر لعبَّاد القبور والقباب , أنهم على حق وهدى مستقيم , فإنهم لا يرضون إلا بذلك .
الدليل الثاني : قول تعالى : {ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} [البقرة : 217]فأخبر تعالى أن الكفار لا يزالون يقاتلون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا , ولم يرخص في موافقتهم خوفاً على النفس والمال والحرمة . بل أخبر عمن وافقهم بعد أن قاتلوا ليدفع شرهم , أنه مرتد , فإن مات على ردته بعد أن قاتله المشركين , فإنه من أهل النار الخالدين فيها , فكيف بمن وافقهم من غير قتال ؟ فإذا كان من وافقهم بعد أن قاتلوا لا عذر لهم من غير خوف ولا قتال , أنهم أولى بعدم العذر , وأنهم كفار مرتدون .
الدليل الثالث : قوله تعالى : {لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا تقاة } [آل عمران : 28] فنهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء وأصدقاء و أصحاباً من دون المؤمنين , وإن كانوا خائفين منهم , وأخبر أن من فعل ذلك فليس من الله في شيء , أي لا يكون من أولياء الله الموعودين بالنجاة في الآخرة {إلا تتقوا منهم تقاة }.
وهو : أن يكون الإنسان مقهوراً معهم لا يقدر على عدواتهم , فيظهر لهم المعاشرة وقلبه مطمئن بالبغضاء و العدواة , وانتظار زوال المانع , فإذا زال رجع إلى العدواة والبغضاء , فكيف بمن

اتخذهم أولياء من دون المؤمنين من غير عذر , إلا استحباب الدنيا على الآخرة , والخوف من المشركين , وعدم الخوف من الله ؟ فما جعل الله الخوف منهم عذراً , بل قال تعالى : {إنما ذالكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم و خافون إن كنتم مؤمنين}[آل عمران : 175] .

الدليل الرابع : قوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين }[آل عمران : 149] فأخبر تعالى : أن المؤمنين إن أطاعوا الكفار فلا بد أن يردوهم على أعقابهم عن الإسلام ، فإنهم لا يقنعون منهم بدون الكفر , وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك صاروا من الخاسرين في الدنيا والآخرة , ولم يرخص في موافقتهم وطاعتهم خوفاً منهم .

وهذا هو الواقع , فإنهم لا يقنعون ممن وافقهم إلا بالشهادة أنهم على حق , وإظهار العداوة والبغضاء للمسلمين , وقطع اليد منهم ؛ ثم قال تعالى : {بل الله مولاكم وهو خير الناصرين}[آل عمران : 150] . فأخبر تعالى أنه ولي المؤمنين وناصرهم , وهو خير الناصرين , ففي ولايته وطاعته كفاية , وغنية عن طاعة الكفار , فيا حسرة على العباد الذين عرفوا التوحيد و نشؤوا فيه , ودانوا به زماناً , كيف خرجوا عن ولاية رب العالمين وخير الناصرين , إلى ولاية القباب وأهلها , ورضوا بها بدلاً من ولاية من بيده ملكوت كل شيء , بئس للظالمين بدلاً .

الدليل الخامس : قوله تعالى : {أفمن اتباع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم و بئس المصير }[آل عمران : 162] فأخبر تعالى أنه لا يستوي من اتبع رضوان الله , ومن اتبع ما يسخطه و مأواه جهنم يوم القيامة , ولا ريب أن عبادة الرحمن وحده ونصرها , وكون الإنسان من أهلها من رضوان الله , وأن عبادة القباب والأموات , ونصرها والكون من أهلها , مما يسخط الله , فلا يستوي عند الله من نصر توحيده ودعوته بالإخلاص , وكان مع المؤمنين , ومن نصر الشرك ودعوة الأموات , وكان مع المشركين .

فإن قالوا خفنا , قيل لهم كذبتم , وأيضاً : فما جعل الله الخوف عذراً في اتباع ما يسخطه , واجتناب ما يرضيه و وكثيراً من أهل الباطل : إنما يتركون الحق خوفاً من زوال دنياهم ، و إلا فيعرفون الحق ويعتقدونه , ولم يكونوا بذلك مسلمين .

الدليل السادس : قوله تعالى : {إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كن مستضعفين في الأرض

قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأوهم جهنم وساءت مصيراً } [النساء : 97] أي : في أي فريق كنتم ؟ أفي فريق المسلمين , أم في فريق المشركين ؟ فاعتذروا عن كونهم لم يكونوا في فريق المسلمين بالاستضعاف , فلم تعذرهم الملائكة { قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأوهم جهنم وساءت مصيراً }.ولا يشك عاقل : أن أهل البلدان الذين خرجوا عن المسلمين ، وصاروا مع المشركين , وفي فريقهم وجماعتهم , أعظم ممن ترك الهجرة مشحة بوطنه وأهله وماله , هذا مع أن الآية نزلت في أناس من أهل مكة ، أسلموا أكرهوهم على الخروج معهم , فخرجوا خائفين , فقتلهم المسلمون يوم بدر ، فلما علموا بقتلهم تأسفوا , وقالوا : قتلنا إخواننا , فأنزل الله فيهم هذه الآية .
فكيف بأهل البلدان , الذين كانوا على الإسلام , فخلعوا ربقته من أعناقهم ، وأظهروا لأهل الشرك الموافقة على دينهم , ودخلوا في طاعتهم وآووهم ونصروهم , وخذلوا أهل التوحيد , وابتغوا غير سبيلهم و خطؤوهم , وظهر فيهم سبهم وشتمهم وعيبهم والاستهزاء بهم , وتسفيه رأيهم في ثباتهم على التوحيد , والصبر عليه وعلى الجهاد فيه , وعاونهم على أهل التوحيد طوعاً لا كرهاً , واختياراً لا اضطراراً ؛ فهؤلاء أولى بالكفر والنار , من الذين تركوا الهجرة شحاً بالوطن , وخوفاً من الكفار , وخرجوا في جيشهم مكرهين خائفين .
فإن قال قائل : هلا كان الإكراه على الخروج عذراً للذين قتلوا يوم بدر ؟ قيل : لا يكون عذراً , لأنهم في أول الأمر لم يكونوا معذورين , إذ أقاموا مع الكفار , فلا يعذرون بعد ذلك الإكراه , لأنهم السبب في ذلك , حيث أقاموا معهم وتركوا الهجرة .
الدليل السابع : قول تعالى : وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جماع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً } [النساء : 140] فذكر تعالى : أنه نزل على المؤمنين في الكتاب , أنهم إذا سمعوا آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها , فلا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره , وأن من جلس مع الكافرين فهو مثلهم , ولم يفرق بين الخائف وغيره إلا المكره , وهذا وهم في بلد واحد في أول الإسلام .
فكيف بمن كان في سعة الإسلام وعزه وبلاده , فدعا الكافرين بآيات الله المستهزئين بها إلى بلاده , واتخذهم أولياء وأصحابا

وجلساء , وسمع كفرهم واستهزاءهم وأقرهم , وطرد أهل التوحيد و أبعدهم ؟!
الدليل الثامن : قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين } [المائدة : 51] فنهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء , وأخبر أن من تولاهم من المؤمنين فهو منهم , وهكذا حكم من تولى الكفار من المجوس و عباد الأوثان فهو منهم .
فإن جادل مجادل : في أن عبادة القباب , ودعاء الأموات مع الله ليس بشرك , وأن أهلها ليسوا بمشركين , بَان أمرُه , و اتضح عناده وكفره ؛ ولم يفرق الله تعالى بين الخائف وغيره , بل أخبر الله تعالى : أم الذين في قلوبهم مرض يفعلون ذلك خوفاً من الدوائر , فزال ما في قلوبهم من الإيمان بوعد الله الصادق , بالنصر لأهل التوحيد , فبادروا وسارعوا إلى الشرك , خوفاً أن تصيبهم دائرة , قال تعالى : { فعسى الله أن يأتي بالفتح من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين } [المائدة : 52] .
الدليل التاسع : قوله تعالى : { ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون } [المائدة : 80] . فذكر تعالى : أن موالاة الكفار موجبة لسخط الله , والخلود في النار , بمجردها , وإن كان الإنسان خائفاً , إلا المكره بشرطه , فكيف إذا اجتمع ذلك مع الكفر الصريح , وهو معاداة التوحيد وأهله , والمعاونة على زوال دعوة الله بالإخلاص , وعلى تثبيت دعوة غيره ؟! .
الدليل العاشر : قوله تعالى : { ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون } [المائدة : 81] فذكر تعالى : أن موالاة الكفار , منافية للإيمان بالله والنبي , وما أنزل إليه , ثم أخبر : ن سبب ذلك كون كثير منهم فاسقين , ولم يفرق بين من خاف الدائرة ومن لم يخف , وهكذا حال كثير من هؤلاء المرتدين قبل ردتهم , كثير منهم فاسقون ؛ فجر ذلك إلى موالاة الكفار , والردة عن الإسلام ، نعوذ بالله من ذلك .
الدليل الحادي عشر : قوله تعالى : { إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون } [الأنعام : 121] وهذه الآية نزلت لما قال المشركون : تأكلون ما قتلتم ,

ولا تأكلون ما قتل الله , فأنزل الله هذه الآية , فإذا كان من أطاع المشركين في تحليل الميتة مشركاً , من غير الفرق بين الخائف وغيره , إلا المكره , فكيف بمن أطاعهم في تحليل موالاتهم , والكون معهم , ونصرهم , والشهادة أنهم على حق , واستحلال دماء جماعة المشركين ؟ فهؤلاء أولى بالكفر والشرك , ممن وافقهم على أن الميتة حلال .

الدليل الثاني عشر : قوله تعالى : {واتلوا عليهم نبأ الذي آتيناه آيتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين } [الأعراف : 175] وهذه الآية نزلت في رجل عالم عابد , في زمان بني إسرائيل ، يقال له : ((بلعام)) وكان يعلم الاسم الأعظم ؛ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : لما نزل بهم موسى عليه السلام – يعني بالجبارين – أتوه بنوا عمه وقومه , فقالوا : إن موسى رجل حديد ، ومعه جنود كثيرة , قال : إني إن دعوت الله ، ذهبت دنياي وآخرتي , فلم يزالوا به حتى دعا عليهم , فسلخه الله مما كان عليه ، فذلك قوله تعالى : {فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين }.

وقال ابن زيد : كان هواه مع القوم , يعني الذين حاربوا موسى وقومه ؛ فذكر تعالى : أمر هذا المنسلخ من آيات الله , بعد أن أعطاه الله إياها , وعرف وصار من أهلها , ثم انسلخ منها , أي : ترك العمل بها , وذكر في انسلاخه منها , ما معناه ، أنه مظاهرة للمشركين ومعاونتهم برأيه ، والدعاء على موسى عليه السلام ومن معه ، أن يردهم الله عن قومه , خوفاً على قومه , وشفقة عليهم , مع كونه يعرف الحق ويقطع به ، ويتكلم به ويشهد به , ويتعبد , ولكن صده عن العمل به : متابعة قومه ، وعشيرته ، وهواه ، وإخلاده إلى الأرض , فكان هذا انسلاخاً من آيات الله .
وهذا هو الواقع من هؤلاء المرتدين , وأعظم ، فإن الله تعالى أعطاهم آياته التي فيها الأمر بتوحيده ودعوته وحده لا شريك له , والنهي عن الشرك به ، ودعوته , والأمر بموالاة المؤمنين , ومحبتهم ونصرتهم ، والاعتصام بحبل الله جميعاً ، والكون مع المؤمنين , والأمر بمعاداة المشركين وبغضهم ، وجهادهم وفراقهم ، والأمر بهدم الأوثان , وإزالة القحاب واللواط ، والمنكرات , وعرفوها وأقروا بها , ثم انسلخوا من ذلك كله , فهم أولى بالانسلاخ من آيات الله , والكفر والردة , من بلعام أو هم مثله .

الدليل الثالث عشر : قوله تعالى : {ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا

تنصرون} [هود : 113] فذكر تعالى : أن الركون إلى الظلمة والكفار والظالمين ، موجب لمسيس النار؛ ولم يفرق بين من خاف منهم وغيره إلا المكره , فكيف بمن اتخذ الركون إليهم ديناً ورأياً حسناً , وأعانهم بما قدر عليه من مال ورأي ، وأحب زوال التوحيد وأهله , واستيلاء أهل الشرك عليهم ، فإن من أعظم الكفر والركون .

الدليل الرابع عشر : قوله تعالى : {من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم , ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين } [النحل : 106 - 107] فحكم تعالى حكماً لا يبدل : أن من رجع عن دينه إلى الكفر فهو كافر ، سواء كان له عذراً خوفاً على نفس أو مال أو أهل أم لا , وسواء كفر بباطنه وظاهره , أم بباطنه دون ظاهره , وسواء كفر بفاعله أو مقاله , أو بأحدهما دون الآخر ، وسواء كان طامعاً في دنيا ينالها من المشركين أم لا , فهو كافر على كل حال , إلا المكره , وهو في لغتنا : المغصوب .

فإذا أكره إنسان على الكفر , أو قيل له اكفر و إلا قتلناك , أو ضربناك , أو أخذه المشركون فضربوه , ولم يمكنه التخلص إلا بموافقتهم , جاز له موافقتهم بالظاهر , بشرط أن يكون قلبه مطمئناً بالإيمان , إي ثابتاً عليه معتقداً له , فأما إن وافقهم بقلبه , فهو كافر ولو كان مكرهاً .

وظاهر كلام أحمد : أنه في الصورة الأولى لا يكون مكرهاً حتى يعذبه المشركون , فإنه لما دخل عليه يحيى بن معين وهو مريض , فسلم عليه فلم يرد عليه السلام , فما زال يعتذر ويقول حديث عمار , وقال الله : { إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان}فقلب أحمد وجهه إلى الجانب الآخر , فقال : يحيى لا يقبل عذراً , فلما خرج يحيى , قال أحمد : يحتج بحديث عمار , وحديث عمار مررت بهم وهم يسبونك , فنهيتهم فضربوني , وأنتم : قيل لكم نريد أن نضربكم ؛ فقال يحيى : والله ما رأيت تحت أديم السماء أفقه في دين الله منك .

ثم أخبر تعالى : أن هؤلاء المرتدين الشارحين صدورهم بالكفر , وإن كانوا يقطعون على الحق , ويقولون : ما فعلنا هذا إلا خوفاً , فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم .

ثم أخبر تعالى : أن سبب هذا الكفر والعذاب , ليس بسبب الاعتقاد للشرك , أو جهل بالتوحيد , أو البغض للدين , أو محبة الكفر , وإنما سببه أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا فآثره

على الآخرة ؛ وعلى رضا رب العالمين فقال : : { ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين }فكفرهم تعالى , وأخبر أنه لا يهديهم مع كونهم يعتذرون بمحبة الدنيا , ثم أخبر تعالى : أن هؤلاء المرتدين لأجل استحباب الدنيا على الآخرة , هم الذين طبع الله على قلوبهم وسمهم وأبصارهم , وإنهم الغافلون ؛ ثم أخبر خبراً مؤكداً محققاً : أنهم في الآخرة هم الخاسرون .

الدليل الخامس عشر : قوله تعالى عن أهل الكهف : {إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا} [الكهف : 20] فذكر تعالى عن أهل الكهف : أنهم ذكروا عن المشركين : أنهم إن قهروكم وغلبوكم , فهم بين أمرين , إما أن يرجموكم أي يقتلوكم شر قتلة برجم ؛ وإما أن يعيدوكم في ملتهم ودينهم { ولن تفلحوا إذاً أبدا}.

أي : وإن وافقهم على دينهم , بعد أن غلبوكم وقهروكم , فلن تفلحوا إذاً أبداً , فهذا حال من وافقهم بعد أن غلبوه , فكيف بمن وافقهم وراسلهم من بعيد , وأجابهم إلى ما طلبوا من غير غلبة ولا إكراه , ومع ذلك يحسبون أنهم مهتدون ؟! .

الدليل السادس عشر : قوله تعالى : {ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين} [الحج : 11]

فأخبر تعالى : أن من الناس من يعبد الله على حرف , أي على طرف , فإن أصابه خير أي نصر وعز وصحة , وسَعَة وأمن وعافية ونحو ذلك , اطمأن به , أي ثبت وقال هذا دين حسن , ما رأينا فيه إلا خيراً , وإن أصابته فتنة , أي : خوف ومرض وفقر ونحو ذلك , انقلب على وجهه , أي ارتد على دينه , ورجع إلى أهل الشرك , فهذه الآية مطابقة لحال المنقلبين عن دينهم في هذه الفتنة سواء بسواء .

فإنهم قبل هذه الفتنة , يعبدون الله على حرف ، أي على طرف , ليسوا ممن يعبد الله على يقين وثبات , فلما أصابتهم هذه الفتنة انقلبوا عن دينهم , وأظهروا الموافقة للمشركين , وأعطوهم الطاعة , وخرجوا عن جماعة المسلمين إلى جماعة المشركين , فهم معهم في الآخرة كما هم معهم في الدنيا فـ{خسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين } هذا مع أن كثيراً منهم في عافية ما أتاهم من عدو , وإنما ساء ظنهم بالله , فظنوا أن يديل الباطل وأهله على الحق وأهله , فأرادهم سوء ظنهم بالله , كما

قال تعالى : {وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين} [فصلت : 23] .
وأنت يَا مَنْ مَنّ الله عليه بالثبات على الإسلام , احذر أن يدخل في قلبك شيء من الريب ، أو تحسين هؤلاء المرتدين , وأن موافقتهم للمشركين وإظهار طاعتهم رأياً حسناً , حذراً على الأنفس والأموال والمحارم , فإن هذه الشبهة , هي التي أوقعت كثيراً من الأولين والآخرين في الشرك بالله ، ولم يعذرهم الله بذلك ، و إلا فكثير منهم يعرفون الحق , ويعتقدونه بقلوبهم , وإنما يدينون لله بالشرك , للاعتذار الثمانية التي ذكرها الله في كتابه , أو لبعضها , فقال : {قل إن كان آبائكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين } [التوبة : 24] .
الدليل السابع عشر : قوله تعالى : {إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم , ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم , ذلك بأنهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم } [محمد : 25 – 28] . فذكر تعالى عن المرتدين على أدبارهم : أنهم من بعد ما تبين لهم الهدى ارتدوا على علم , فلم ينفعهم عملهم بالحق مع الردة , وغرهم الشيطان بتسويله وتزيين ما ارتكبوه من الردة .
وهكذا حال هؤلاء المرتدين في هذه الفتنة , غرهم الشيطان فأوهمهم أن الخوف عذر لهم في الردة , وأنهم بمعرفة الحق ومحبته والشهادة لا يضرهم ما فعلوه , ونسوا إن المشركين من يعرفون الحق ويحبونه ويشهدون به , ولكن يتركون متابعته والعمل به محبة للدنيا , وخوفاً على الأنفس والأموال , والمآكل و الرياسات .
ثم قال تعالى : {ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر }فأخبر تعالى : أن سبب ما جرى عليهم من الردة , و تسويل الشيطان والإملاء لهم , هو قولهم للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر , فإذا كان مَنْ وَعَدَ المشركين ، الكارهين لما أنزل الله , طاعتهم في بعض الأمر , كافراً , وإن لم يفعل ما وعدهم به , فكيف بمن وافق المشركين الكارهين لما أنزل الله , من الأمر بعبادته وحده لا شريك له ,

وترك عبادة ما سواه , من الأنداد والطواغيت والأموات , وأظهر أنهم على هدى , وإن أهل التوحيد مخطئون في قتالهم , وأن الصواب في مسالمتهم والدخول في دينهم الباطل , فهؤلاء أولى بالردة من أولئك الذين وعدوا المشركين بطاعتهم في بعض الأمر , ثم أخبر تعالى عن حالهم الفظيع عند الموت , ثم قال : (ذلك) أي الأمر الفظيع عند الوفاة{بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم}.

ولا يستريب المسلم أن اتباع المشركين , والدخول في جملتهم , والشهادة أنهم على حق , ومعاونتهم على زوال التوحيد وأهله , ونصرة القباب و القحاب واللواط , من اتباع ما يسخط الله , وكراهة رضوانه , وإن ادعوا أن ذلك لأجل الخوف , فإن الله ما عذر أهل الردة بالخوف من المشركين , بل نهى عن خوفهم , فأين هذا ممن يقول : ما جرى منا شيء ونحن على ديننا ؟! .

الدليل الثامن عشر : قوله تعالى : {ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون }[الحشر : 11] فعقد الله تعالى الأخوة بين المنافقين والكفار ، وأخبر أنهم يقولون لهم في السر : لئن أخرجتم لنخرجن معكم , أي : لئن غلبكم محمداً ﷺ وأخرجكم من بلادكم { لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً } أي لا نسمع من أحد فيكم قولاً, ولا نعطي فيكم طاعة { وإن قوتلتم لننصرنكم }أي : إن قاتلكم محمد ﷺ لننصركم , ونكون معكم , ثم شهد إنهم لكاذبون في هذا القول .

فإذا كان وعد المشركين في السر بالدخول معهم , ونصرهم والخروج معهم إن جلوا , نفاقاً وكفراً وإن كان كذباً , فكيف بمن أظهر ذلك صدقاً ؟ وقدم عليهم ودخل في طاعتهم , ودعا إليها ونصرهم , وانقاد لهم وصار من جملتهم , وأعانهم بالمال والرأي ؟ هذا مع أن المنافقين لم يفعلوا ذلك , إلا خوفاً من الدوائر , كم قال تعالى : {فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة}[المائدة : 52] .

وهكذا حال كثير من هؤلاء المرتدين في هذه الفتنة , فإن عذر كثير منهم هذا , هو العذر الذي ذكره الله عن الذين في قلوبهم مرض , ولم يعذرهم الله به , قال تعالى : {فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم

نادمين ,ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسم بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين }[المائدة : 52 - 53] .

ثم قال تعالى : {يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين }فأخبر تعالى أنه لا بد عند وجود المرتدين , من وجود المحبين المجاهدين ؛ ووصفهم بالذلة والتواضع للمؤمنين , والعزة والغلظة والقسوة على الكافرين , بضد من كان تواضعه وذله ولينه , لعباد القباب , وأهل القحاب واللواط , وعزته وغلظته على أهل التوحيد والإخلاص ، فكفى بهذا دليلاً على كفر من وافقهم , وإن ادعى أنه خائف , فقد قال تعالى : {ولا يخافون لومة لائم} وهذا بضد من يترك الصدق والجهاد خوفاً من المشركين .

ثم قال تعالى : {يجاهدون في سبيله} أي في توحيده صابرين على ذلك ابتغاء وجه ربهم , لتكون كلمة الله هي العليا {ولا يخافون لومة لائم} أي لا يبالون بمن لامهم وآذاهم في دينهم , بل يمضون على دينهم يجاهدون فيه , غير ملتفتين للوم أحد من الخلق , ولا لسخطه ولا لرضاه , وإنما همتهم وغاية مطلوبهم رضا سيدهم و معبودهم , والهرب من سخطه , وهذا بخلاف من كانت همته وغاية مطلوبه , رضا عباد القباب , وأهل القحاب واللواط , ورجاءهم والهرب مما يسخطهم , فإن هذا غاية الضلال والخذلان .

ثم قال تعالى : {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم} [المائدة : 54]فأخبر الله تعالى : أن هذا الخير العظيم , والصفات الحميدة , لأهل الإيمان الثابتين على دينهم عند وقوع الفتن , ليس بحولهم ولا بقوتهم , وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء , كما قال تعالى : {يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم}[آل عمران : 74] .

ثم قال تعالى : {إنما وليكم اله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون}[المائدة : 55] فأخبر الله تعالى خبراً بمعنى الأمر , بولاية الله ورسوله والمؤمنين , وفي ضمنه النهي عن موالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين , ولا يخفى أي الحزبين أقرب إلى الله ورسوله , وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة , أهل الأوثان والقباب ، و القحاب واللواط , والخمور والمنكرات ؟ أم أهل الإخلاص , و إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ؟ فالمتولى لضدهم واضع للولاية في غير محلها , مستبدل بولاية

الله ورسوله والمؤمنين , المقيمين للصلاة المؤتين للزكاة , على ولاية أهل الشرك والأوثان والقباب .
ثم أخبر تعالى : أن الغلبة لحزبه ومن تولاهم , فقال : {ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون}[المائدة : 56] .
الدليل التاسع عشر : قوله تعالى : { لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم }الآية [المجادلة : 22] فأخبر تعالى : أنك لا تجد من كان يؤمن بالله واليوم الآخر يوادّ من حاد الله ورسوله , ولو كان أقرب قريب , وأن هذا مناف للإيمان مضاد له , لا يجتمع هو والإيمان إلا كما يجتمع الماء والنار , وقد قال تعالى في موضوع آخر : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آبائكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون } [التوبة : 23] .
ففي هاتين الآتيين : البيان الواضح أنه لا عذر لأحد في الموافقة على الكفر , خوفاً على الأموال والآباء , والأبناء والإخوان , والأزواج , والعشائر , ونحو ذلك مما يعتذر به كثير من الناس , إذا كان لم يرخص لأحد في موالاتهم , واتخاذهم أولياء بأنفسهم , خوفاً منهم وإيثاراً لمرضاتهم , فكيف بمن اتخذ الكفار الأباعد أولياء , وأصحاباً , واظهر لهم الموافقة على دينهم , خوفاً على بعض هذه الأمور , ومحبة لها , ومن العجب : استحسانهم لذلك , واستحلالهم له , فجمعوا مع الردة استحلال الحرام .
الدليل العشرون : قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة} إلى قوله : { ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل } [الممتحنة :1] أي أخطأ الصراط المستقيم , فأخبر تعالى : أن من تولى أعداء الله ، وإن كانوا أقرباء وأصدقاء , فقد ضل سواء السبيل , أي : أخطأ الصراط المستقيم , وخرج عنه إلى الضلال , فأين هذا ممن يدعي أنه على الصراط المستقيم , لم يخرج عنه , فإن هذا تكذيب لله , ومن كذب الله فهو كافر , واستحلال لما حرم الله من ولاية الكفار , ومن استحل محرماً ثم ذكر تعالى : شبهة من اعتذار بالأرحام والأولاد , فقال : { لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير } [الممتحنة : 3] فلم يعذر الله تعالى من اعتذار بالأرحام والأولاد , والخوف عليهما , ومشقة مفارقتهما , بل أخبر أنها لا تنفع يوم القيامة , ولا تغني عن عذاب

الله شيئاً , كم قال تعالى في الآية الأخرى : { فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} [المؤمنون : 101] .

الدليل الحادي عشر : من السنة ما رواه أبو داود وغيره . عن سمرة بن جندب رضي الله عنه , عن النبي أنه قال : ((من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله)) فجعل في هذا الحديث من جامع المشركين , أي : اجتمع معهم وخالطهم وسكن معهم , فهو مثلهم , فكيف بمن أظهر لهم الموافقة على دينهم , وآواهم وأعانهم , فإن قالوا خفنا قيل لهم كذبتم .

وأيضاً : فليس الخوف بعذر كما قال تعالى : { ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله } [العنكبوت : 10] فلم يعذر الله تبارك وتعالى من يرجع عن دينه عند الأذى , والخوف , فكيف بمن لم يصبه أذى ولا خوف , وإنما جاء إلى الباطل محبة له وخوفاً من الدوائر , والأدلة على هذا كثير , وفي هذا كفاية لمن أراد الله هدايته .

وأما من أراد الله فتنته وضلالته , فكما قال تعالى : { إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون , ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم } [يونس : 96 - 97] فنسأل الله الكريم المنان : أن يحيينا مسلمين , وأن يتوفانا مسلمين , وأن يلحقنا بالصالحين , غير خزايا ولا مفتونين , برحمته وهو أرحم الراحمين , وصلى الله على محمد .

وسئل : قدس الله روحه , ونور ضريحه , ما قولكم أدام الله النفع بعلومكم , في أهل بلد مرتدين , أو بادية , وهم بنو عم , ويجيء لهم ذكر عند الأمراء , فيتسبب بالدفع عنهم بعض أقاربهم – مما هو عند المسلمين حمية دنيوية – إما بطرح نكال , أو دفن نقائص المسلمين , أو يشير بكف المسلمين عنهم , هل يكون موالاة نفاق ؟ أو يصير كفراً ؟ فإن كان ما يقدر من نفسه : أن يتلفظ بكفرهم , وسبهم , ما حكمه ؟ وكذلك إذا عرفت هذا من إنسان , ماذا يجب عليك ؟ أفتنا مأجوراً .

فأجاب : اعلم أولاً – أيدك الله بتوفيقه – أن أوثق عرى الإيمان : الحب في الله والبغض في الله , وأن الله افترض على المؤمنين عداوة المشركين , من الكفار والمنافقين , وجفاة الأعراب , الذين يعرفون بالنفاق , ولا يؤمنون بالله ورسوله وأن الله أمرهم بجهادهم , والإغلاظ عليهم بالقول والفعل,

وتوعدهم الله باللعن والقتل بقوله : { ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً } [الأحزاب : 61] وقطع الموالاة بين المؤمنين وبينهم , وأخبر أن مكن تولاهم فهو منهم , وكيف يدعي رجل محبة الله , وهو يحب أعداءه الذين ظاهروا الشياطين على عدوانهم , واتخذوهم أولياء من دون الله ؟ كما قيل :

تحب عدوي ثم تزعم أنني صديقك إن الود عنك لعازب

وبالجملة : فالحب في الله , والبغض في الله , أصل عظيم من أصول الإيمان , يجب على العبد مراعاته ؛ ولهذا جاء في الحديث ((أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله)) ولذلك أكثر الله من ذكره في القرآن , قال تعالى : {لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة } [آل عمران : 28] .

قال بعض السلف : فهو أن يوالوا الكافرين , لقرابة بينهم , أو صداقة قبل الإسلام , أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشر ، وقوله : { من دون المؤمنين } يعني : أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكفار , فلا تؤثروهم عليهم { ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة } أي : ومن يتول الكفرة , فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه الولاية , يعني : أنه منسلخ من ولاية الله رأساً .

وهذا أمر معقول , فإن موالاة الولي , وموالاة عدوه متنافيان { إلا أن تتقوا منهم تقاة }فرخص في موالاتهم إذا خافهم , فلم يحسنوا معاشرتهم إلا بذلك ,وكانوا مقهورين لا يستطيعون إظهار العداوة لهم , فحينئذ تجوز المعاشرة ظاهرة , والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء , ينتظر زوال المانع , كما قال تعالى : { إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان}[النحل : 106]قال ابن عباس : ليس التقية بالعمل , إنما التقية باللسان .

وقال أيضاً : نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار ، ويتخذوهم وليجة من جون المؤمنين ، إلا أن يكون الكفار ظاهرين , فيظهرون لهم اللطف , ويخالفونهم في الدين , وذلك قوله : { إلا أن تتقوا منهم تقاة } ذكره ابن جرير , وابن أبي حاتم .

وقال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم } [آل عمران : 118]قال القرطبي : لا تجعلوا خاصتكم وبطانتكم منهم ، قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم } إلى قوله : { فإن حزب الله هم الغالبون } [المائدة : 51- 56] قال حذيفة :

ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر , لهذه الآية { ومن يتولهم منكم فإنه منهم }.

قال مجاهد في قوله تعالى : { فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم } قال المنافقون في مصانعة اليهود , ومداخلهم واسترضاعهم أولادهم إياهم , وقال علي رضي الله عنه : في قوله تعالى{أذلة على المؤمنين} قال : أهل رقة على أهل دينهم { أعزة على الكافرين } قال : أهل غلظة على من خالفهم في دينهم ؛ وكذا نقل معناه عن غير واحد من السلف .

وقال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء} [المائدة : 57] وقال تعالى : { ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون } الآية بعدها [المائدة : 80 , 81] .

وقال تعالى : {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين و اغلظ عليهم ومأواهم جهنم و بئس المصير } [التوبة : 73] فقد أمر الله بجهاد الكفار والمنافقين مع دعواهم الإسلام , وأمر بالإغلاظ عليهم قولاً وفعلاً , وقال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية { جاهد الكفار} بالسيف { والمنافقين }باللسان { و اغلظ عليهم }قال : أذهب الرفق عنهم .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : { جاهد الكفار والمنافقين } قال بيده , فإن لم يستطع فبلسانه , فإن لم يستطع فبقلبه , وليلقه بوجه مكفهر أي عابس متغير من الغيظ والبغض , ذكره ابن أبي حاتم ؛ وجاء معناه في حديث مرفوعاً رواه البيهقي في الشعب , وقال تعالى : { لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباهم أو أبنائهم}الآية [المجادلة : 22] نفي سبحانه وتعالى الإيمان عمن هذا شأنه , ولو كانت مودته ومحبته و مناصحته لأبيه وأخيه وابنه ونحوهم , فضلاً عن غيرهم .

وقال تعالى : { ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار }[هود : 113] قال ابن عباس : { ولا تركنوا } قال لا تميلوا ؛ وقال عكرمة : أن تطيعوهم أو تودوهم , أو تصطنعوهم , ومعنى تصطنعوهم , أي : تولهوهم الأعمال , كمن يولي الفساق والفجار ؛ وقال الثوري : ومن لاق لهم دواة , أو برى لهم قلماً ، أو ناولهم قرطاساً دخل في هذا ؛ قال بعض المفسرين في الآية : فالنهي متناول للانحطاط في هواهم , والانقطاع إليهم , ومصاحبتهم ,

ومجالستهم , وزيارتهم ومداهنتهم , والرضا بأعمالهم , والتشبه بهم و التزيي بزيهم , ومد العين إلى زهرتهم , وذكره بما فيه تعظيم لهم , وتأمل قوله : { ولا تركنوا } والركون هو الميل اليسير .

وقال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة} إلى قوله : { فأولئك هم الظالمون} [الممتحنة : 1- 9] **وصح** : أن صدر هذه السورة نزلت في حاطب بن أبي بلتعة , لما كتب إلى المشركين , يخبرهم بمسير رسول الله إليهم , وجاء في تفسير قوله تعالى : { لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر}الآية [المجادلة : 22] أنها في أبي عبيدة بن الجراح , لما قتل أباه يوم بدر , كما رواه الطبراني وابن أبي حاتم , والحاكم وغيرهم .

وعن ابن جريج قال حدثت : أن أبا قحافة سب النبي فقال : ((أفعلت يا أبا بكر)) فقال : والله لو كان السيف قريباً مني لضربته ، فنزلت ((لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر)) رواه ابن المنذر , وهذا – والله أعلم – في أول الإسلام , فإن أبا قحافة أسلم عام الفتح , فلم يكن ليسب النبي بعد الإسلام , وأبو بكر خرج مهاجراً من مكة , ولم يعد إليها إلا بعد الإسلام , في عمرة النبي .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ((من أحب في الله , وأبغض في الله , وعادى في الله , ووالى في الله , فإنما تنال ولاية الله بذلك)) رواه ابن أبي شيبة , وابن أبي حاتم ؛ وفي حديث رواه أبو نعيم وغيره , عن ابن مسعود قال : قال رسول الله : ((أوحى الله إلي نبي من الأنبياء : أن قل لفلان العابد , أما زهدك في الدنيا فتعجلت راحت نفسك , وأما انقطاعك إلي فتعززت به , فما عملت فيما لي عليك , قال يا رب : ومالك علي ؟ قال : ((هل واليت لي ولياً , أو عاديت لي عدواً)) .

وقال تعالى : { والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير} [الأنفال : 73] فعقد تعالى الموالاة بين المؤمنين , وقطعهم من ولاية الكافرين , وأخبر أن الكفار بعضهم أولياء بعض , وإن لم يفعلوا ذلك وقع من الفتنة والفساد الكبير شيء عظيم , وكذلك يقع , فهل يتم الدين أو يقام علم الجهاد , وعلم المر بالمعروف والنهي عن المنكر , إلا بالحب

في الله والبغض في الله , والمعاداة في الله والموالاة في الله , ولو كان الناس متفقين على طريقة واحدة , ومحبة من غير عداوة ولا بغضاء , لم يكن فرق بين الحق والباطل , ولا بين المؤمنين والكفار , ولا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان , والآيات في هذا كثيرة .

وأما الأحاديث : فروى أحمد عن البراء بن عازب ((أوثق عرى الإيمان الحب في الله , والبغض في الله)) وفي حديث مرفوع ((اللهم لا تجعل للفاجر عندي يداً ولا نعمة فيوده قلبي , فإني وجدت فيما أوحي إلي { لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله }الآية [المجادلة : 22] رواه ابن مردويه وغيره ؛ وعن أبي ذراً مرفوعاً ((أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله)) رواه أبو داود , ورواه أحمد مطولاً.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعاً ((المرء مع من أحب)) وعن ابن مسعود مرفوعاً ((لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي)) رواه ابن حبان في صحيحه ؛ وعن علي مرفوعاً ((لا يحب رجل قوماً إلا حشر معهم)) رواه الطبراني بإسناد جيد , قاله ابن المنذر ؛ وقد روى أحمد معناه عن عائشة بإسناد جيد أيضاً عنها مرفوعاً ((الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا في الليلة الظلماء , وأدناه أن تحب على شيء من الجَوْر , أو تبغض على شيء من العدل , وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله , قال الله تعالى : { قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله } الآية [آل عمران :31] رواه الحاكم , وقال صحيح الإسناد .

فقد جعل النبي في هذا الحديث : الحب على شيء من الجور وإن قل , والبغض على شيء من العدل وإن قل من الشرك , فليحذر أشد الحذر من موادة أعداء الله من الكفار والمنافقين , وعن بريدة مرفوعاً ((لا تقول للمنافقين سيداً , فإنه إن يكن سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل)) رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح , ورواه الحاكم ولفظه ((إذا قال الرجل للمنافق يا سيدي , فقد أغضب ربه عز وجل)) وقال صحيح الإسناد .

وعن ابن مسعود مرفوعاً ((مثل الذي يعين قومه على غير الحق , كمثل بعير تردى في بئر فهو ينزع بذنبه)) ورواه أبو داود وابن حبان , قال ابن المنذر ومعنى الحديث : أنه وقع في الإثم , وهلك البعير إذا تردى في بئر , فصار ينزع في ذنبه , فلا يقدر على

الخلاص , والأحاديث في ذلك كثيرة .

فصل
في ذكر الآثار عن السلف

وهي كثيرة فنذكر منها بعضها , قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم } إلى قوله : { إن الله عليم بذات الصدور }والآية بعدها [آل عمران :118- 119]قال ابن عباس : في الآية رجال من المسلمين يواصلون رجالاًمن اليهود , لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية , فأنزل الله فيهم ينهاهم عن بطانتهم لخوف الفتنة عليهم { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً }قال هم المنافقون رواه ابن أبي حاتم .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه , أنه قيل له : إن هنا غلاماً من أهل الحيرة , حافظاً كاتباً , فلو اتخذته كاتباً , قال : قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين , رواه ابن أبي شيبة , وعن الربيع (لا تتخذوا بطانة) قال لا تستدخلوا المنافقين تتولونهم دون المؤمنين .

وفي تفسير القرطبي في الكلام على هذه الآية : نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من لكافرين واليهود وأهل الأهواء دخلاء و ولائج يفاوضونهم في الآراء ويسندون إليهم أمورهم , ويقال كل من كان على خلاف دينك ومذهبك لا ينبغي أن تخادنه , قال القائل شعراً :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي

وفي سنن أبي داود : عن أبي هريرة عن رسول الله قال : ((المرء على دين خليله , فلينظر أحدكم من يخالل)) وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه , أنه قال : اعتبروا الناس بأخدانهم , ثم بيّن المعنى الذي لأجله ورد النهي عن المواصلة , قال : (لا يألونكم خبالاً) يعني : فساداً يعني لا يتركون فسادكم .

قال : وقد مر أبو موسى الأشعري على عمر رضي الله عنه بحساب , فدفعه إلى عمر فأعجبه , فقال لأبي موسى : أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس ؟ فقال : إنه لا يدخل المسجد ؛

فقال : لم , أجنب هو ؟ قال : إنه نصراني ؛ قال فانتهره , وقال : لا تدنهم وقد أقصاهم الله , ولا تكرمهم وقد أهانهم الله , لا تأمنهم وقد خونهم الله .

ومن كتاب : الإمام محمد بن وضاح , قال جاء في الأثر : من جالس صاحب بدعة , فقد مشى في هدم الإسلام ؛ وقال الأوزاعي : كانت أسلافكم تشهد عليهم – أي : على أهل البدع – ألسنتهم , وتشمئز منهم قلوبهم , ويحذرون الناس بدعتهم ؛ وقال الحسن : لا تجالس صاحب بدعة , فإنه يمرض قلبك ؛ وقال لإبراهيم : لا تجالسوا أهل البدع , ولا تكلموهم , فإني أخاف أن ترتد قلوبكم , وروى هذه الآثار ابن وضاح .

قال شيخ الإسلام : محمد بن عبد الوهاب , رحمه الله , اعلم رحمك الله : أن كلام السلف في معاداة أهل البدع والضلالة << في ضلالة لا تخرج عن الملّة , لكنهم شدّدوا في ذلك , وحذروا منه الأمرين .... الخ . انظر صفحة : 314 , 315 , من القسم الأول من مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب , رحمه الله . >> فإذا كان هذا كلام السلف , وتشديدهم في معاداة أهل الضلالات , ونهيهم عن مجالستهم , فما ظنك بمجالسة الكفار والمنافقين , وجفاة الأعراب , الذين لا يؤمنون بالله ورسوله , والسعي في مصالحهم , والذب عنه , وتحسين حالهم ؟ مع كونهم بين اثنتين , إما كافر أو منافق , ومن يتهم بمعرفة الإسلام منهم قليل , فهذا من رؤوسهم وأصحابهم , وهو معهم , يحشر يوم القيامة , قال تعالى : { احشروا الذين ظلموا وأزواجهم } الآية [الصافات : 22] وقال تعالى : { وإذا النفوس زوجت } [التكوير : 7] وقد تقدم الحديث ((لا يحب رجل قوماً إلا حشر معهم)) .

فصل

في التنبيه على حاصل ما تقدم

قد نهى الله سبحانه عن موالاة الكفار, وشدد في ذلك , وأخبر أن من تولاهم فهو منهم , وكذلك جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ , وأخبر النبي ﷺ أن من أحب قوم حشر معهم , ويفهم مما ذكرنا من الكتاب والسنة , والآثار عن السلف , أمور , من فعلها دخل في تلك الآيات و وتوعد للوعيد بمسيس النار , نعوذ بالله من موجبات غضبه , وألين عقابه .

أحدها : التولي العام ؛ الثاني : المودة والمحبة الخاصة ؛ الثالث : الركون القليل ؛ قال تعالى : {ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً , إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا

تجد لك علينا نصيراً } [الإسراء : 74 – 75] فإذا كان هذا الخطاب لأشرف مخلوق صلوات الله وسلامه عليه , فكيف بغيره ؛ الرابع : مداهنتهم و مدارتهم ؛ قال الله تعالى : { ودوا لو تدهن فيدهنون } [القلم : 9] .

الخامس : طاعتهم فيما يقولون وفيما يشيرون , كما قال تعالى : { ولا تطع من أغلفنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً } [الكهف : 28] وقال تعالى { ولا تطع كل حلاف مهين } الآيات [القلم : 10 - 15] السادس : تقريبهم في الجلوس ، والدخول على أمراء الإسلام .

السابع : مشاورتهم في الأمور ؛ الثامن : استعمالهم في أمر من أمور المسلمين , أي أمر كان , إمارة أو عمالة , أو كتابة أو غير ذلك ؛ التاسع : اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين .

العاشر : مجالستهم و مزاورتهم , والدخول عليهم ؛ الحادي عشر : استئمانهم وقد خونهم الله ؛ الرابع عشر : معاونتهم بأمورهم ولا بشيء قليل ؛ كبرى القلم , وتقريب الدواة ليكتبوا ظلمهم ؛

الخامس عشر : مناصحتهم ؛ السادس عشر : اتباع أهوائهم ؛

السابع عشر : مصاحبتهم ومعاشرتهم ؛ الثامن عشر : الرضاء بأعمالهم , والتشبه بهم والتزيي بزييهم , التاسع عشر : ذكر مل فيه تعظيم لهم , كتسميتهم سادات وحكماء , كما يقال للطواغيت السيد فلان , أو يقال لمن يدعي علم الطب الحكيم ، ونحو ذلك .

العشرون : السكنى معهم في ديارهم ، كما قال : ((من جامع المشركين , وسكن معهم فإنه مثلهم)) رواه أبو داود .

إذا تبين هذا : فلا فرق في هذه الأمور , بين أن يفعلها مع أقربائه منهم , أو مع غيرهم كما في آية المجادلة , وحينئذ : فالذي يتسبب بالدفع عنهم حمية , إما بطرح نكال , أو دفن نقائص المسلمين , أو يشير بكف المسلمين عنهم , من أعظم الموالين المحبين للكفار , من المرتدين والمنافقين وغيرهم , خصوصاً المرتدين , ينبغي أن تكون الغلظة عليهم أشد من الكافر الأصلي , لأن هذا عادى الله على بصيرة , وعادى رسوله بعد ما عرف الحق ، ثم أنكره وعاداه والعياذ بالله .

فإذا كان من أعان ظالماً فقد شاركه في ظلمه , فكيف بمن يعيين الكفار , والمنافقين على كفرهم ونفاقهم ؟ وإذا كان من أعلن ظالماً مسلكاً في خصومة ظلم عند حاكم , شريكاً للظالم , فكيف بمن يعين الكفار , ويذب عنهم عند الأمراء ؟ وإذ كان الحرامية ,

الذين يأخذون أموال الناس , إذا بذلوا للأمير مالاً على أن يكف عنهم , فهو رئيسهم , فما ظنك بمن يسر إلى الكفار بالمودة , ويعلمهم أنه يحبهم , ليواصلوه ويكرموه ؟ كما نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية , قدّس الله روحه وغيره .
ولكن طرح النكال , إن كان عن مسلم مظلوم , فالشفاعة فيه , والسعي في إسقاطه بالرأي , ونحوه حسن , وإن كان عن مرتد فلا نعما لعثرته ولا كرامة , ويكفي في ذلك ما رواه أحمد , والترمذي وحسنه , وابن أبي حاتم والطبراني , والحاكم وصححه عن ابن مسعود , قال : لما كان يوم بدر جيء بالأسرى , وفيهم العباس , فقال رسول الله ﷺ : ((ما تأمرون في هؤلاء الأسرى , فقال أبو بكر : قومك يا رسول الله وأهلك , فاستبقهم لعل الله يتوب عليهم ؛ وفي حديث أنس ، عن أحمد : نرى أن تعفو عنهم , وتقبل منهم الفداء ؛ وفي حديث ابن مسعود , فقال عمر : يا رسول الله ، كذبوك ، وأخرجوك ، وقاتلوك ، قدمهم فاضرب أعناقهم ، فدخل النبي ﷺ ولم يرد عليهم شيئاً .
فخرج رسول الله ﷺ وقال : ((يا أبا بكر : مثلك مثل إبراهيم عليه السلام ، قال : { فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم } [إبراهيم : 36] ومثلك يا عمر : كمثل نوح , قال : { رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً } [نوح : 26] أنتم عالة , فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء , أو ضرب عنق ؛ فأنزل الله : { ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض } [الأنفال : 67 - 68] مختصراً .
وفي حديث أنس : فأنزل الله : { لو لا كتاب من الله سبق } الآية ؛ وفي حديث ابن عمر , عن أبي نعيم : فلقي رسول الله ﷺ عمر , فقال : ((كاد أن يصيبنا في خلافك شر)) وفي رواية عنه – عند ابن المنذر وابن مردويه – فقال رسول الله ﷺ : ((إن كاد لمسنا في خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم ، ولو نزل عذاب ما أفلت إلا عمر)) .
فإذا كان هذا في رأي الصديق رضي الله عنه , الذي اجتهد فيه , ونصح لله ورسوله ﷺ , فما ظنك بمن يفعل ذلك , مع حمية دنيوية , لا لغرض دين , ولا يقصد وجه الله بذلك , بل لا يقصد إلا الدنيا .

فإن قيل : فالنبي لم يذم أبا بكر على التشبيه , بل شبهه بإبراهيم وعيسى و ميكائيل ، عليهم السلام , وشبه عمر : بجبريل ونوح وموسى عليهم السلام .
قيل المراد : في الموافقة في أهل اللين والرحمة , لا في خصوص هذه المسألة , فإن الصواب فيها مع عمر قطعاً بكتاب الله , ومع ذلك تواعد الله بأخذ الفداء بالعذاب , لولا ما سبق من كتاب الله , أنه رأي للصديق رضي اله عنه , الذي اجتهد فيه , فكيف بمن ينصح لهم ؟ ويرفق بهم , ويرى الكف عن القتال , ويشير بإسقاط النكال عنهم من غير مسوغ شرعي , بل لمجرد المحبة الدنيوية .
وأما من يشير بكف المسلمين عنهم , فإن كان مراده بذلك تأليفهم , على الدخول في الإسلام , أو دخلوا فيه , أو واعدوه بالدخول فيه عن قريب , وكانت المصلحة في تركهم قليلة ونحوه , يجوز ذلك ؛ وإن كان المراد به : أن لا يتعرض المسلمون لهم بشيء ، لا بقتال ولا نكال , وإغلاظ ونحو ذلك , فهو من أعظم أعوانهم , وقد حصلت له موالاتهم مع بعد الديار , وتباعد الأقطار , كما قيل :
سهم أصاب وراميه بذي سلم   من بالعراق لقد أبعدت مرماك
وأما من يشير بترك نقائض المسلمين لهم إن كانوا مرتدين , فهذا عند الفقهاء مخطئ آثم , لأنه يجب على المرتد ضمان ما أتلفه في حال الردة , خصوصاً من تكررت منه الردة مراراً , فإنه لا يقص بذلك في هذا الزمان , إلا الإغارة والنهب لا غير , فترك ذلك له , من أعظم المعاونة على الإثم والعدوان , ولهذا لما صار هذا أمراً سائغاً عند بعض الناس , انفتحت للبدوان أبواب الردة , وأتوه مهطعين من كل وجه , فلا يجب طرد ذلك لكل أحد في كل زمان , فاعلم ذلك .
وأما قول السائل : هل يكون موالاة نفاق , أم يكون كفراً ؟
فالجواب : إن كانت الموالاة مع مساكنتهم في ديارهم , والخروج معهم في قتالهم , ونحو ذلك , فإنه يحكم على صاحبه بالكفر , كما قال تعالى : { ومن يتولهم منكم فإنه منهم } [المائدة : 51]
وقال تعالى : وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم } [النساء : 140] وقال النبي : ((من جامع

المشركين وسكن معهم فإنه مثلهم)) وقال : ((أنا بريء من مسلم بين أظهر المشركين)) رواهما أبو داود .
وإن كانت الموالاة لهم في ديار الإسلام , إذا قدموا إليهم ونحو ذلك , فهذا عاص آثم متعرض للوعيد , وإن كان موالاتهم لأجل دنياهم ، يجب عليه من التعزير بالهجر والأدب ونحوه ما يزجر أمثاله ، وإن كانت الموالاة لأجل دينهم فهو مثلهم , ومن أحب قوماً حشر معهم .
ولكن ليتفكر السائل في قوله : حمية دنيوية يمكن هذا لإبلاغ المحبة في قلوبهم , و إلا فلو كان يبغضهم في الله ويعاديهم , لكان أقر شيء لعينه ما يسخطهم , ولكن كما قال ابن القيم :
أتحب أعداء الحبيب وتدعي حباًله ما ذاك في إمكان
وأما قول السائل : فإن كان ما يقدر من نفسه , أن يتلفظ بكفرهم وسبهم ما حكمه ؟
فالجواب : لا يخلو ذلك عن أن يكون شاكاً في كفرهم أو جاهلاً به , أو يقر بأنهم كفرة هم وأشباههم , ولكن لا يقدر على مواجهتهم و تكفيرهم , أو يقول : غيرهم كفار , لا أقول إنهم كفار ؛ فإن كان شاكاً في كفرهم أو جاهلاً بكفرهم , بيّنت له الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله على كفرهم , فإن شك بعد ذلك وتردد فإنه كافر بإجماع العلماء , على أن شك في كفر الكافر , فهو كافر .
وإن كان يقر بكفرهم , ولا يقدر على مواجهتهم بتكفيرهم , فهو مداهن لهم , ويدخل في قوله تعالى : { ودوا لو تدهن فيدهنون } [القلم : 9] . وله حكم أمثاله من أهل الذنوب , وإن كان يقول : أقول غيرهم كفار , ولا أقولا هم كفار , فهذا حكم منه بإسلام , إذ لا واسطة بين الكفر والإسلام , فإن لم يكونوا كفاراً فهم مسلمون ؛ وحينئذ فمن سمى الكفر إسلاماً , أو سمى الكفار مسلمين ، فهو كافر فيكون هذا كافراً .
وأما قوله : إذا عرفت هذا من إنسان ماذا يجب عليك ؟
فالجواب : يجب عليك أن تنصحه , وتدعوه إلى الله سبحانه وتعالى , وتعرفه قبيح ما ارتكبه , فإن تاب فهذا هو المطلوب .
وإن أصر وعاند فله حكم ما ارتكبه , إن كان كفراً فكافر , وإن كان معصية أو إثماً فعاص وآثم , يجب الإنكار عليه وتأديبه , وهجره وإبعاده حتى يتوب ، وقد هجر النبي من تخلف عن غزوة واحدة , ونهى عن كلامهم والسلام عليهم , فكيف بمن يوالي الكفار ويظهر لهم المودة ؟

وسئل : هل يجوز للمسلم أن يسافر إلى بلد الكفار الحربية , لأجل التجارة أم لا ؟
الجواب : الحمد لله إن كان يقدر على إظهار دينه , ولا يوالي المشركين , جاز ذلك , فقد سافر بعض الصحابة رضي الله عنهم , كأبي بكر رضي الله عنه , وغيره من الصحابة ' إلى بلدان المشركين , لأجل التجارة , ولم ينكر ذلك النبي , كما رواه أحمد في مسنده وغيره .
وإن كان لا يقدر على إظهار دينه , ولا عدم موالاتهم , لم يجز له السفر إلى ديارهم , كما نص على ذلك العلماء , وعليه تحمل الأحاديث , التي تدل على النهي عن ذلك , ولأن الله تعالى : أوجب على الإنسان العمل بالتوحيد , وفر عليه عداوة المشركين , فما كان ذريعة وسبباً إلى إسقاط ذلك لم يجز
وأيضاً : فقد يجره ذلك إلى موافقتهم , و إرضائهم كما هو الواقع كثيراً , ممن يسافر إلى بلدان المشركين , من فساق المسلمين , نعوذ بالله من ذلك .
المسألة الثانية : هل يجوز للإنسان أن يجلس في بلد الكفار , وشعائر الكفر ظاهرة لأجل التجارة ؟
الجواب : عن هذه المسألة , هو الجواب عن التي قبلها سواء , ولا فرق في ذلك بين دار الحرب أو دار الصلح , فكل بلد لا يقدر المسلم على إظهار دينه فيها , لا يجوز له السفر إليها .
المسألة الثالثة : هل يفرق بين المدة القريبة مثل شهر , أو شهرين , والمدة البعيدة ؟
الجواب : أنه لا فرق بين المدة القريبة والبعيدة , فكل بلد لا يقدر على إظهار دينه فيها , ولا على عدم موالاة المشركين , لا يجوز له المقام فيها ولا يوماً واحداً , إذا كان يقدر على الخروج منها .
المسألة الرابعة : في معنى قوله تبارك وتعالى : { إنكم إذاً مثلهم } [النساء : 140] وقوله في الحديث : ((من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله)) .
الجواب : أن معنى الآية على ظاهرها , وهو أن الرجل إذا سمع آيات الله يكفر بها , ويستهزأ بها , فجلس عند الكافرين المستهزئين , من غير إكراه ولا إنكار , ولا قيام عنهم , حتى يخوضوا في حديث غيره , فهو كافر مثلهم , وإن لم يفعل فعلهم , لأن ذلك يتضمن الرضاء بالكفر , والرضاء بالكفر كفر , وبهذه الآية ونحوها : استدل العلماء على أن الراضي بالذنب كفاعله , فإن

ادعى أنه يكره ذلك بقلبه لم يقبل منه , لأن الحكم على الظاهر , وهو قد أظهر الكفر , فيكون كافراً .

ولهذا لما وقعت الردة بعد موت النبي و وادعى أناس أنهم كرهوا ذلك , لم يقبل منهم الصحابة ذلك , بل جعلوهم كلهم مرتدين , إلا من أنكر بلسانه وقلبه , وكذلك قوله في الحديث : ((من جامع المشرك وسكن معهم فإنه مثله)) على ظاهره , وهو : أن الذي يدعي الإسلام , ويكون مع المشركين في الاجتماع ، والنصرة , والمنزل معهم , بحيث يعده المشركين منهم و فهو كافر مثلهم , وإن ادعى الإسلام , إلا إن كان يظهر دينه , ولا يوالي المشركين .

ولهذا لما ادعى بعض الناس , الذين أقاموا في مكة بعد ما هاجر النبي , فادعوا الإسلام إلا أنهم أقاموا في مكة , يعدّهم المشركون منهم , وخرجوا معهم يوم بدر كارهين للخروج , فقتلوا , وظن بعض الصحابة أنهم مسلمون , وقالوا قتلنا إخواننا , فأنزل الله تعالى فيهم : {إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم } الآية [النساء : 97] . قال السدي وغيره من المفسرين : إنهم كانوا كفاراً ولم يعذر الله منهم إلا المستضعفين .

المسألة الخامسة : هل يقال لمن أظهر علامات النفاق , ممن يدعي الإسلام أنه منافق أم لا ؟

الجواب : أنه من ظهرت منه علامات النفاق الدالة عليه , كارتداده عند التحزيب على المؤمنين وخذلانهم , عند اجتماع العدو , كالذين قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم , وكونه إذا غلب المشركون التجأ معهم , وإذا غلب المسلمون التجأ إليهم , ومدحه للمشركين بعض الأحيان , ومووالاتهم من دون المؤمنين , وأشباه هذه العلامات , التي ذكره الله أنها علامات للنفاق , وصفات للمنافقين ,فإنه يجوز إطلاق النفاق عليه , وتسميته منافقاً .

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم : يفعلون ذلك كثيراً , كما قال حذيفة رضي الله تعالى عنه , إن الرجل ليتكلم بالكلمة في عهد رسول الله فيكون بها منافقاً , وكما قال عوف بن مالك لذلك المتكلم . بذلك الكلام القبيح كذبت , ولكنك منافق ؛ وكذلك قال عمر في قصة حاطب : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ؛ وفي رواية : دعني أضرب عنقه فإنه منافق , وأشباه ذلك كثير ؛ وكذلك قال أسيد بن حضير لسعد بن عبادة ، لما قال ذلك الكلام , كذبت ولكنك منافق تجادل عن المنافقين .

ولكن ينبغي أن يعرف : أنه لا تلازم بين إطلاق النفاق عليه ظاهراً , وبين كونه منافقاً باطناً ؛ فإذا فعل علامات النفاق , جاز تسميته منافقاً لمن أراد أن يسميه بذلك , وإن لم يكن منافقاً في نفس الأمر , لأن بعض هذه الأمور , قد يفعلها الإنسان مخطئاً لا علم عنده , أو لقصد يخرج به عن كونه منافقاً , فمن أطلق عليه النفاق لم ينكر عليه , كما لم ينكر النبي على أسيد بن حضير تسميته سعداً منافقاً , مع أنه ليس بمنافق , ومن سكت لم ينكر عليه , بخلاف المذبذب الذي ليس مع المسلمين , ولا مع المشركين , فإنه لا يكون إلا منافقاً .

واعلم : أنه لا يجوز إطلاق النفاق على المسلم بالهوى والعصبية , أو لكونه يشاحن رجلاً في أمر دنيا , أو يبغضه لذلك , أو لكونه يخالفه في بعض الأمور , التي لا يزال الناس فيه مختلفين , فليحذر الإنسان أشد الحذر , فإنه قد صح في ذلك الحديث عن النبي فيمن رمى مؤمناً بكفر فهو كقتله , وإنما يجوز من ذلك ما كانت العلامات مطردة في النفاق , كالعلامات التي ذكرنا وأشباهها , بخلاف مثل الكذبة والفجرة ونحو ذلك , وكان قصد الإنسان ونيته إعلاء كلمة الله , ونصر دينه .

المسألة السادسة : في الموالاة والمعاداة , هل هي من معنى لا إله إلا الله , أ, من لوازمها ؟

الجواب : أن يقال : الله أعلم , لكن بحسب المسلم أن يعلم : أن الله افترض عليه عداوة المشركين , وعدم موالاتهم , وأوجب عليه محبة المؤمنين وموالاتهم , وأخبر أن ذلك من شروط الإيمان , ونفى الإيمان عمن يواد من حاد الله ورسوله , ولو كانوا آبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشريتهم .

وأما كون ذلك من معنى لا إله إلا الله أو لوازمها , فلم يكلفنا الله بالبحث عن ذلك , وإنما كلفنا بمعرفة أن الله فرض ذلك وأوجبه , وأوجب العمل به , فهذا هو الفرض و الحتم الذي لا شك فيه , ومن عرف أن ذلك من معناه , أو من لازمها فهو حسن , وزيادة خير , ومن لم يعرفه فلم يكلف بمعرفته , لاسيما إذا كان الجدال والمنازعة فيه , مما يفضي إلى شر واختلاف , ووقوع فرقة من المؤمنين , الذين قاموا بواجبات الإيمان , وجاهدوا في الله , وعادوا المشركين , وولوا المسلمين , فالسكوت عن ذلك متعين , وهذا ما ظهر لي , على أن الاختلاف قريب من جهة المعنى , والله أعلم .

قال الشيخ : عبد الرحمن رحمه الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الرحمن بن حسن : إلى الابن صالح , سلمه الله تعالى آمين , سلام عليكم ورحمة الله وبركاته
وبعد , بلغنا : أن الباز أرسلوا لابن نبهان رسالة , كتبه حمد بن عتيق , متضمنة للاستدلال بالآيات المحكمات , في تحريم طاعتهم , والركون إليهم , و الإشارة إلى بعض معاني الآيات الواردة في ذلك , وهو أصل من أصول الدين لا بد من معرفته , والبحث عنه , وبيانه للجاهل , لاسيما الواقع فيه , تذكيراً وتحذيراً , وهذا شرع محكم , لو اجتمع على دفعه من بأقطارهم من عالم وجاهل , لما قدروا على رده بحجة أصلاً.
وبلغنا : أن ابن نبهان , لما أشرف على النسخة , كتب اعتراضات وأصل فيها أصولاً , لا يدري هل سبقه إليها مبتدع أم لا ؟ فلو قيل لهم : من هذا مذهبه ؟ ومن قال به ؟ لم يجب عن ذلك بما يصلح أن يعد جواباً , فمن ذلك فيما بلغنا عنه : أنه لا جهاد إلا مع إمام , فإذا لم يوجد إمام فلا جهاد , فيلزم على هذا أن ما يلزم بترك الجهاد , من مخالفة دين الله وطاعته جائز , بجواز ترك الجهاد , فتكون الموالاة للمشركين , والموافقة والطاعة جائزة , واللازم باطل ، فبطل الملزوم , فعكس الحكم الذي دل عليه القرآن العزيز , من أنها لا تصلح إمامة إلا بجهاد .
والأصل الثاني , فيما بلغنا عنه أنه قال لا حجة فيما قاله الصحابة رضي الله عنهم في معنى القرآن العزيز , فإذا لم يكن قول الصحابة حجة , وهم الذين أخذوه عن نبيهم , وحضروا نزوله , وعرفوا أسبابه , وهم أعلم الأمة وأعدلها < بياض في الأصل , لعله : [وهم] > الحجة في التفسير , فليت شعري هل عرف من هذا مذهبه من المبتدعة , إلى غير ذلك مما لا حاجة إلى أن نطيل بذكره .
والحاصل : أن المطلوب منك : أخذ ما كتبه وإرساله إلي لأنظر فيه , ليطالب في كل لفظة ببرهانها , وليظهر تناقضه , فإن المقام مقام لا يسع تركه , فلو كان قد صدره من لا يدعي المعرفة , لكان حقيقاً بالإعراض عنه , وأما ما هو مثل هذا الذي يدعي : أنه يدري , ولا يدري أنه لا يدري , فلا بد من بيان ما فيه ,

لئلا يغتر به جاهل , فإذا تبين ما فيه من الغلط والتناقض , دفع الشبهة عن ضعيف البصيرة , إن شاء الله تعالى .
وهنا سؤال اسأله عنه , واطلب جوابه منه , سله عن كلمة ((الإسلام)) التي هي أصل دين الله , عن معناه , وعن مضمونها , وعن مدلولها , ومقتضاها , وحقها وحقيقتها , ولوازمها , فإن عرف ذلك تبين أنه قد عرف و أنكر , فإن لم يعرف ذلك وهو يدعي المعرفة , بطلت دعواه أصلاً, فإن خبط فالتخبط لا ينفع أحداً ولا يفيد , فألزمه الجواب فهو حجة عليه , والله الموفق لبيان الهدى , والاستقامة عليه , والسلام .
فلما وصل إليه : اعتراضات ابن نبهان , أوضح الحق من البهتان , فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين , والعاقبة للمتقين , ولا عدوان إلا على الظالمين , وصلى الله على أشرف المرسلين , ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين , وسلم تسليماً .
أما بعد : فإنه ورد علينا رسالة من صاحبنا حمد بن عتيق ، نور الله قلوبنا وقلبه بنور الإيمان , وثبتنا بالقول الثابت , عند تلاطم أمواج الامتحان , والله ناصر دينه وكتابه ورسوله في سائر الأزمان , لكن بمحنة حزبه من حربه , ذا حكمه مذ كانت الفئتان , فوجدت تلك الرسالة وافية بالمقصد الأعلى , والمنهج الأسنى , منهج أهل الحنيفية ، والدعوة الإسلامية , من تحذير المغرورين والجاهلين , عن مداهنة الظالمين , وموالاة الكافرين ومظاهرة المسرفين , مستنداً في ذلك إلا أوضح البراهين , من أدلة الكتاب والسنة , وإبراز معناه المأثور عن الأئمة المحققين .
هذا : وقد وقع من بعض من لا إلف له بهذا الشأن , ولا جواد تحته تصلح للجري في هذا الميدان , بعض معارضات , إنما هي ضلالات و جهالات , ما اقتضى حين وقفت عليها بيان سلوك منهج العلماء , أهل الإتباع و التحذير من موارد أهل الابتداع , كي تحصل السلامة إن شاء الله , من موجب وعيد أهل الكتمان , والقيام بالنصيحة بالقلم واللسان ؛ والله المستعان , وعليه التكلان , ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
وهذه مقدمة نافعة قبل الشروع في المقصود : قال الله تعالى : {ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين} [فصلت : 33] أخرج ابن جرير بسنده عن معمر ,

قال تلا الحسن : {ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله} الآية ، قال : هذا ولي الله , هذا صفوة الله , هذا خيرة الله , هذا أحب خلق الله فيه من دعوته , وعمل صالحاً في إجابته , وقال إنني من المسلمين , فهذا خليفة الله ؛ وخرج بإسناده عن قتادة , قال : هذا عبد صدق قوله عمله , ومولجه مخرجه , وسره علانيته , وشاهده مغيبه , وأن المنافق : خالف قوله عمله , ومولجه مخرجه , وسره علانيته , وشاهده مغيبه .

وأخرج في معنى قوله : {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا} [فصلت : 30] بسنده عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه , عن رسول الله أنه قرأ {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا} قال : قد قالها الناس ثم كفر أكثرهم , فمن مات عليها فهو ممن استقام ؛ وأخرج بسنده عن الزهري , قال : تلا عمر رضي الله عنه على المنبر {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا} قال : استقاموا والله على طاعته , ولم يروغوا روغان الثعالب .

وذكر في معنى قوله : {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذين أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه} [الشورى : 13] أي اعملوا به على ما شرع لكم و رضى به , ولا تتفرقوا فيه ؛ وأخرج بسنده عن قتادة تعلموا : أن الفرقة هلكة , وأن الجماعة ثقة ؛ وذكر في معنى قوله الله : {فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم} [الشورى : 15] يقول : فلذلك الدين الذي شرع لكم , ووصى به نوحاً , و أوحاه إليك يا محمد ، فادع عباد الله واستقم على العمل به , ولا تزغ فيه واثبت عليه , كما أمرك ربك بالاستقامة .

قوله : {ولا تتبع أهواءهم} يقول تعالى : ولا تتبع أهواء الذين شكوا في الحق , الذي شرعه الله لكم من الدين , وقوله : {وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب} مواثيق أخذها منهم , والكتاب : كائناً من كان ذلك الكتاب , توراة , أو إنجيلاً , أو زبوراً , أو صحف إبراهيم , لا أكذب بشيء من ذلك تكذيبكم ببعضه معشر الأحزاب , وتصديقكم ببعضه .

وقوله : {وأمرت لأعدل بينكم} يقول تعالى : وقل لهم يا محمد , وأمرني ربي لأعدل بينكم أيها الأحزاب , فأسير فيكم جميعاً بالحق الذي أمرني به , وبعثني بالدعاء إليه , وساق بسنده عن قتادة , قال : أمره الله أن يعدل حتى مات , والعدل ميزان الله في

الأرض , به يأخذ للمظلوم من الظالم , والضعيف من الشديد , وبالعدل يصدق الله الصادق ويكذب الكاذب , وبالعدل يرد المعتدي ويوبخه.

وقال البغوي في قوله :{فاستقم كم أمرت} أي : على دين ربك والعمل به , والدعاء إليه {ومن تاب معك ولا تطغوا}[هود : 112] أي لا تجاوزوا الأوامر , ولا تعصوني {ولا تركنوا إلى الذين ظلموا} قال ابن عباس لا تميلوا ؛ والركون هو الميل بالقلب والمحبة , وقال أبو العلية لا ترضوا بأعمالهم ؛ وقال السدي لا تداهنوا الظلمة ؛ وعن عكرمة لا تطيعوهم ؛ وقبل لا تسكنوا إلى الذين ظلموا {فتمسكم النار} أي : فتصيبكم {ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون}[هود : 113] .

فمن هذه الآيات , وما ذكرناه قبلها , من ثواب أهل الاستقامة ، وعقاب أهل الركون إلى الذين ظلموا , عرف ما بين أهل الاستقامة وأهل الركون من التفاوت العظيم , كما قال بعض العلماء : وإنما تفاوت الواجبات والمحرمات , بتفاوت المثوبات والعقوبات , فحال الفريقين متفاوتة أبعد تفاوت , لتفاوت ما بين ثواب هؤلاء وعقاب هؤلاء .

ويزداد هذا المقام إيضاحاً , بالتفكر في اثنتين عظيمتين , قال الله : {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون , أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعلمون } [الأحقاف : 13 , 14] نفى عنهم الخوف والحزن , وأخبر أنهم أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون , أي من توحيد الله وطاعته , وامتثال أمره وترك نهيه .

وقال تعالى فيمن سلك غير سبيلهم , بارتكاب ما نهى عنه { ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون } [المائدة : 80]

فسجل تعالى على من تولى الكافرين , بالمذلة وحلول السخط عليهم , والخلود في العذاب , وأكد ذلك بنوعي التوكيد , ثم ذكر ن هذا الذي وصفهم به , ينافي الإيمان بالله والنبي , وما أنزل إليه ؛ ولها نظائر كقوله : { بشر المنافقين بأن لهم عذاب أليماً , الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين} الآيات [النساء : 138-140] .

فما أعظم ثواب أهل الاستقامة , وما أقطع عقاب متولي الكافرين , فكان الجزاء من جنس العمل , وكما تدين تدان ؛ فلا إله إلا الله : ما أبين هذا القرآن العظيم , لمن استضاء بنور العلم

والإيمان , أفيظن من له أدنى مسكة من عقل : أن هذا التفاوت بهذه الأعمال , وتفاوت ثوابها وعقابها , إنما هو في حق من سلف دون من تأخر وخلف ؟ وقد قال تعالى في جنس من خلف { فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً } الآية [مريم : 59] وقال : {أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون} الآيتين [القلم : 35 , 36] .

أفيظن مسلم : أن وقع هذا من بعض من تقدم من هذه الأمة , جائز عليهم بكل حال , وأما من تأخر فمن الممتنع المحال ؟ هيهات , لقد أحصيت الحسنات والسيئات على الآخر , كما أحصيت الحسنات والسيئات على الآخر , كما أحصيت على الأول {أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات } الآية [الجاثية : 21] .

وقد ذكر شيخ الإسلام : أحمد بن تيمية رحمه الله , في رسالة وقعة التتار , قال : فإن نصوص الكتاب والسنة , الذين هما دعوة محمد ﷺ , يتناولان عموم الخلق , بالعموم اللفظي والمعنوي , أو بالعموم المعني , وعهود الله تعالى في كتابه , وسنة رسوله ﷺ تناول آخر هذه الأمة , كما تناولت أولها .

وإنما قص الله علينا قصص الأمم قبلنا , لتكون عبرة لنا , فنشبه حالنا بحالهم , ونقيس أواخر هذه الأمة بأولها , فيكون للمؤمن من المستأخرين , شبه ما كان للمؤمنين من المستقدمين , ويكون للكفار و المنافقين من المستأخرين , شبه بما كان للكافرين والمنافقين من المستقدمين , كما قال : {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى} [يوسف : 111] .

وقال لما ذكر قصة فرعون {فأخذه الله نكال الآخرة والأولى - إن في ذلك لعبر لمن يخشى } [النازعات : 25 , 26] . وقال : { قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين } إلى قوله : {إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار} [آل عمران : 13] وقال في قصة محاجة بني النضير {فاعتبروا يا أولي الأبصار}[الحشر : 2] فأمرنا : أن نعتبر بأحوال المستقدمين من هذه الأمة , وما قبلها , انتهى .

وقد بعث الله محمداً ﷺ إلى جميع الثقلين الجن والإنس , كما قال تعالى : {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعلمين نذيراً}[الفرقان : 1] وقال تعالى : {وأوحي إلي هذا القرآن

لأنذركم به ومن بلغ }[الأنعام : 19] وأنزل الله عليه الكتاب بالحق , ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه , من حين البعثة إلى أن تقوم الساعة , فهو خاتم النبيين , وعلى ملته وشريعته تقوم الساعة , كما ثبت في الحديث الصحيح عنه أنه قال : ((لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين , لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم , حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك)) .

وبهذا يعلم : أن خطاب الله , وأحكام الكتاب والسنة , تتعلق بجميع المكلفين من هذه الأمة , لا يختص به أول عن آخر , وهذا مع ظهور ما في الكتاب والسنة , فهو إجماع في الأمة سلفاً وخلفاً , ولا يرتاب في هذا أحد ممن ينتسب إلى الإسلام .

ولهذا صنف العلماء رحمهم الله , في كل عصر ومصر في التفسير , والحديث , والفقه , والأصول وغيرها , حفظاً للدين والشريعة , ليكون آخر الأمة كأولها في العلم والعمل , والتزام أحاكم الشريعة , وإلزام الناس بها , لأن ضرورتهم إلى ذلك فوق كل ضرورة , ولما عظمت الفتنة , وظهر الجهل والظلم , عاد الإسلام غريباً , وصار الأمر كما ترى , فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وذكر أبو سليمان الخطابي , في معالم السنن : أن خطاب الله على ثلاثة أوجه ؛ خطاب عام كقوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيدكم } الآية[المائدة : 6] وقوله : {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام }[البقرة : 183] ونحو ذلك من أوامر الشريعة .

وخطاب خاص للنبي لا يشركه فيه غيره , وهو ما أبين عن غير بسمة التخصيص , وقطع الشريك , كقوله : {ومن الليل فتهجد به نافلة لك }[الإسراء : 79] وكقوله : {خالصة لك من دون المؤمنين }[الأحزاب : 50] و خطاب مواجهة للنبي : { أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل } [الإسراء : 78] و قوله : {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم } [النحل : 98] وقوله : {وإذا كنتم فيهم فأقمتم لهم الصلاة } [النساء : 102] ونحو ذلك من خطاب المواجهة , فكلما دلكت الشمس , كان عليه إقامة الصلاة واجبة , وكل من أراد قراءة القرآن , كانت الاستعاذة

معتصماً له , وكل من حضره العدو , وخاف فوات الصلاة , أقامها على الوجه الذي فعلها رسول الله ﷺ [illegible] .

[illegible] , [illegible] : {خذ من أموالهم صدقة } [التوبة : 103] فعلى القائم بعده بأمر الأمة : أن يحتذي حذوه في أخذها منهم , وإنما الفائدة في مواجهة النبي ﷺ [illegible] , [illegible] , [illegible] , [illegible] , [illegible] , [illegible] , [illegible] .

[illegible] : [illegible] , [illegible] {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين و اغلظ عليهم } [التوبة : 73] وقوله : {يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيما } الآية [الأحزاب : 1] ومن الأول قوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء } الآيات [المائدة : 51 – 56] وقوله : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء } [المائدة : 57] .

وقوله : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء } الآيات [الممتحنة : 1- 9] وهذه وإن كان سبب نزولها في حاطب بن أبي بلتعة , حين كتب إلى قريش , يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ [illegible] , [illegible] : {ومن يفعله منكم } معشر المخاطبين كائناً من كان { فقد ضل سواء السبيل } وهذا شامل لكل فرد من أفراد الأمة , من المستقدمين و المستأخرين , لا يرتاب في هذا مسلم قط , وفي ذكر سبب النزول : بيان جنس التولي الذي نهى الله عنه , وهذا ظاهر جداً لمن استنار قلبه بنور العلم والإيمان .

وأما من طفى نوره بظلمات الفتنتين , فتنة الشبهات والشهوات , فلا يدرك الحقائق على ما هي عليه , لفساد تصوره , كما قال تعالى : { فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور } [الحج : 46] وقال تعالى : { ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيد له شيطاناً فهو له قرين }الآية [الزخرف : 36] وقال تعالى : { فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام } الآية [الأنعام : 25] وقال تعالى : { ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور} [النور : 40] .

فاقتضت حكمت الرب تعالى : أن ابتلى أهل البلاد النجدية , بصولة هذه الدولة المصرية , كما قد ابتلى من قبلهم من هذه الأمة وغيرها , بما ابتلاهم به تمييزاً واختباراً , كما قال تعالى : {أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة }الآية [التوبة : 16]
وقال تعالى : { ومن الناس من يعبد الله على حرف }الآيات [الحج : 11 – 13] .
وقال تعالى : { الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون }الآيات [العنكبوت : 1- 6] فجرى بسبب هذه المحنة من نفاق الناس , واضطراب القلوب , واختلاف الذين ما لا متسع لذكره في هذه الأوراق , ولكن لما كان كلامه يشبه لما ذكره شيخ الإسلام في واقعة التتر , اقتضى أن نذكر كلامه هنا , لقوة المشابهة بين الحادثتين , وما جرى فيهما لما فيها من الفوائد والعبر .
قال رحمه الله : فينبغي للعقلاء , أن يعتبروا بسنة الله وآياته في عباده , ودأب الأمم وعادتهم , لاسيما في مثل هذه الحادثة العظيمة , التي طبق الخافقين خبرها , واستطار في جميع ديار المسلمين شررها , وأطلع النفاق ناصية رأسه , وكشف الكفر فيها عن أنيابه وأضراسه .
وكاد منها عمود الكتاب أن يجتث و يخترم , وحبل الإيمان أن يقطع و يصطلم , وعقر دار المسلمين أن يحل بها البوار , ويزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار , وظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض : أن ما وعدهم الله ورسوله إلا غروراً وأن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وظنوا ظن السوء وكانوا قوماً بوراً .
وقد نزلت فتنة : تركت الحليم فيها كالحيران , وأنزلت الصاحي منزلة السكران , وتركت الرجل اللبيب لكثرة الوسواس , ليس بالنائم ولا اليقظان , و تناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان , حتى بقي للرجل بنفسه شغل عن أن يغيث اللهفان , وميز الله فيها أهل البصائر والإيقان , من الذين في قلوبهم مرض أو نفاق أو ضعف إيمان , ورفع بها أقواماً إلى الدرجات العالية , كما وضع بها أقواماً إلى المنازل الهاوية , وكفر عن آخرين , أعمالهم الخاطئة .
وحدث فيها من أنواع البلوى ما جعلها مختصرة من القيامة الكبرى , فإن الناس تفرقوا فيها ما بين شقي وسعيد , كم يتفرقون في ذلك اليوم الموعود , وفر الرجل فيها عن أمه وأخيه , وكان لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه , وكان من الناس : من كان أقصر

همته النجاة بنفسه لا يلوي على ماله , ولا ولده ولا عرسه , وكان منهم من فيه قوة على تخليص الأهل والمال , والآخر فيه زيادة معونة لمن هو منه ببال , وآخر منزلة الشفيع المطاع , وهم درجات عند الله في المنفعة والدفاع .
ولم ينفع المنفعة الخالصة من الشكوى , إلا الإيمان والعمل الصالح , والبر والتقوى , وبليت فيها السرائر , وظهرت فيها الخبايا التي كانت تكنها الضمائر , وتبين أن البهرج من الأقوال , يخون صاحبه أحوج ما كان إليه في المآل , وذم سادته وكبراءه من أطاعهم , فأضلوا السبيلا , كما حمد ربه من صدق في إيمانه , واتخذ مع الرسول سبيلا .
وبان صدق ما جاءت به الآثار النبوية , من الأخبار بما يكون , وواطأها قلوب الذين هم في هذه الأمة محدثون , كما تواطأت عليه المبشرات التي أريها المؤمنون , وتبين فيها الطائفة المنصورة الظاهرة على الدين , الذين لا يضرهم من خذلهم ولا خالفهم إلى يوم القيامة , حتى تحزب الناس ثلاثة أحزاب , مجتهد في نصرة هذا الدين , وآخر غره بالله الغرور , وكان الامتحان تمييزاً من الله وتقسيماً { ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً } [الأحزاب : 24] أي يتوب عليهم إذا تابوا , انتهى .
وهذا حين الشروع في الجواب عما اعترض به , قال , وبعد : جاءنا من عندكم أوراق ، فلما أشرفت عليها , إلى أنها آيات من كتاب الله , وكتاب الله هو الحجة القاطعة .
فأقول : هذا كلام ينبئ عن حال قائله , بأنه لا خبرة له بشيء من أنواع البحث والمناظرة أصلاً, فإنه أسس فيه ما ينقض عليه , و هو قوله : كتاب الله هو الحجة القاطعة ؛ وهذا الكلام يوجب أن يقابل بالقبول والتسليم , ويقتضي من قائله الإقبال على فهم المراد منه والعمل به , وأن لا ينصب نفسه خصماً له .
واعلم : أن أصول أدلة الشريعة الكتاب والسنة والإجماع , والقياس والاستصحاب , و فيهما تفصيل ومسالك لأهل العلم , وأما الثلاثة الأول , فلا اختلاف فيه عند جميع الطوائف المنتسبين إلى الإسلام , فكل قول يقوله هذا المعترض وغيره , فهو مطالب بالدليل , إما من الكتاب أو السنة أو الإجماع , فإن قام الدليل و إلا فقوله رد عليه , فتنبه لهذا الأصل و استصحبه , يرحمك الله به من هذه الأغاليط .

ثم قال : وأتبعها عن الشيخين , يعني شيخ الإسلام أحمد بن تيمية , وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب , وعلى كلامهم المعمول ..... إلخ .
أقول : هذا قول من يجهله حال نفسه , مع ما هو مشتمل عليه من اللحن , وهكذا حال من لا يعرف عربية ولا إعراباً , ثم إنه لا يخفى حال الشيخين المذكورين , فإنهما قاما لله بالدين القويم , والدعوة إلى صراط المستقيم , فليزم من عرف انهما القدوة , أن لا يعدل عن طريقتهما علماً وعملاً , وهذا تأسيس لنقض اعتراضك , وتحقيق ذلك يعلم بمطالعة ما تقدم , من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية , في واقعة التتر , ومطالعة عشر الدرجات , لشيخنا إمام الدعوة الإسلامية , في معنى قول الله تعالى : { وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله احداً } [الجن : 18] وفي ثمان الحالات , في معنى قوله تعالى : {قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني }الآيات [يونس : 104 - 107] .
فإذا كان هما القدرة , و كلامهما المعمول , فليزمك أن تعول على ما سترى من كلامهما ، حتى يكون لقولك حقيقة , ولا أخالك تفعل .
شعراً :
إذا لم توافق قولة منك فعلة ففي كل جزء من حديثك تفضح
وقولك : لكنك أخلّيت حين استدللت بالآيات , عن بيان سبب نزولها , عن حكمها , وفيمن نزلت ... إلخ .
فأقول , وبالله التوفيق : قد أمكنت الرامي من سواء الثغرة , هذا كلام في غاية الركاكة لفظاً ومعنى ، ويشعر بأن قائله لا معرفة له في شيء أصلاً , ولو ذهبنا نذكر ما فيه من سوء التعبير , لطال الجواب عن بيان خصال , لا تخفى على من له معرفة بالكلام , صحيحه و سقيمه .
ثم لا يخفى : أن هذا الكلام على ما فيه , شروع منك في نقض ما أسّسته من قولك : أن كلام الله هو الحجة القاطعة ، فحاولت في هذه العبارة , أن لا يحتج به على أهل وقت أنت فيهم , فإذا كان أحكام القرآن مقصورة عندك , على من نزل بسببهم , فكيف حجة قاطعة على غيرهم , هذا تناقض منك بيِّن أسست ثم هدمت .
ثم يقال لك : فمن أخذت عنه هذا ؟ ومن قال من الأمة : ن خطاب الله في كتابه , وخطاب رسوله في سنته , إنما يتعلق بمن نزل بسببهم دون غيرهم ، هذا لا يقوله أبلد الناس , وأجهلهم بالشريعة وأحكامها , بل ولا يتجاسر أن يقول أحد , ممن يجادل

بالباطل , صوناً لنفسه عن التجهيل والتضليل ، لأن هذا على الجهالة والضلالة , من أبين دليل , ولما يلزم قائله من تعطيل الشريعة , والطعن على أصحاب رسول الله ﷺ في قتال من ارتد عن الإسلام , بعد وفاة نبيهم ﷺ لكونهم يشهدون ن لا إله إلا الله , كما قصة الصديق مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه , حتى قال : فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال ، فعلمت أنه الحق فيلزمك على هذا القول : أنه ليس بحق , واللازم باطل , فبطل الملزم .

ويلزم أيضاً على هذا القول المختلق : أن الصحابة رضي الله عنهم أخطؤوا في قتال الخوارج , لأنهم يشهدون أن لا إله إلا الله , ولهم عبادات وقراءة وعلم ؛ وأن قول النبي ﷺ (([illegible]

[illegible]

[illegible] : {فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر} الآية [النساء : 59] [illegible] : {وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله} الآية [الشورى : 10] وهذا خطاب من الله , يتعلق بجميع من بعث إليه رسول الله ﷺ من الثقلين ,

من لدن بعثته إلى قيام الساعة من{ وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ } [الأنعام : 19] .
وتأمل قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة} إلى قوله : { ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل } [الممتحنة :1] فواجه سبحانه المؤمنين بهذا الخطاب , إنذاراً وتعذيراً , ولا ريب أنه يتعلق بكل مؤمن بالله وكتابه ورسوله , من الذين نزل فيهم القرآن , ومن حضر نزوله , ومن بعدهم إلى يوم قيام الساعة .
وليس من الجائز في عقل من له أدنى مسكة من عقل , أن يقول : هذه الآيات نزلت في شأن حاطب , لما كتب إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله فيقصر حكم هذا الخطاب العام , على من نزل هذا الحكم بسببه , فإذا كان لا يمكن أحد أن يقول ذلك , فهذا أيضاً لا يختص بأوائل هذه الأمة دون أواخرها , لأن خطاب القرآن والسنة : يتعلق بكل فرد من الأولين والآخرين , بلا نزاع بين الأمة , إلا أن الرافضة نازعوا في قوله : { خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها } [التوبة :103]أن هذا الحكم خاص به , وهو باطل عند أهل السنة والجماعة , وهذا وإن خرج مخرج الخصوص , فهو عام , وأدلته أكثر أن يحتملها هذا المحل .
وكل خطاب في القرآن والسنة , بأمر أو نهي , فهو كذلك , لأن الله ختم الأنبياء بمحمد وأنزل عليه الكتاب تبياناً لكل شيء , وعلى شريعته وأمته تقوم الساعة , كما في الحديث الصحيح ((لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين , لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم , حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك)) وهذا الطائفة وكل طائفة من الثنتين والسبعين , تنتسب إلى أنها من أمة محمد ولا ترى في نفسه إلا أنها هي التي على الحق دون غيرها .
وقد تقدم : كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى , فإن نصوص الكتاب والسنة , الذين هم دعوة محمد إلى يوم القيامة , تناول عموم الخلق , بالعموم اللفظي والمعنوي , أو العموم المعنوي , وعهود الله كتابه وسنة رسوله تناول آخر هذه الأمة , كما تناول أولها إلى آخر كلامه ؛ فأعد النظر فيه .
ومثل هذه الآية , التي تقدم ذكرها , قوله تعالى { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً } الآية [المائدة :

57] وقال تعالى في الآيات قبلها: { ومن يتولهم منكم فإنه منهم } الآية [المائدة : 51] وهذه الآية وأمثالها , تعرف بعظم هذا الذنب ؛ في هذه الآية قد جعلها تعالى من موانع الهداية , ووصف الفاعل بالظلم , فسماهم الظالمين , وفي هذه السورة وغيرها قبلها وبعدها في السور , ما يدل على هذا ردة عن الإسلام , يظهر فيها لمن تدبر .

وصرح شيخنا رحمه الله , في رده على ابن سحيم وغيره , وسبقه إلى ذلك العلماء , كأبي جعفر بن جرير في تفسيره , وبرهانه ظاهر القرآن – ولله الحمد والمنة – والناس إنما يعرفون بأعمالهم , كما قال تعالى : { وقل اعملوا فسير الله عملكم ورسوله والمؤمنين } الآية [التوبة : 105] فإذا عمل العبد بأعمال أهل الأيمان , ولم يأتي بما ينافي ذلك و صار مؤمناً مع المؤمنين للآية .

وإن عمل أعمال أهل النفاق ، من الكفرة والمرتدين , صار منهم ولا بد , وإن كان من أرفع الناس نسباً وأكثرهم مالاً وحسباً , شاء أم أبى , فلا يرجون عبد إلا ربه , ولا يخافن إلا ذنبه , وما أحسن ما قال الحسن البصري رحمه الله : ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني , ولكن ما وقر في القلوب , وصدقته الأعمال .

فإذ كنت إنما تعرف الناس بالأشخاص لا بالأعمال , فكيف تدعي معرفة التوحيد , وأنت لا تميز أهله من ضدهم , ولا تعرف ما يناقضه ؛ وقد عد العلماء رحمهم الله , - كصاحب الإقناع – من نواقض الإسلام , أكثر من أربعمائة ناقض , وقد وقع أكثر الناس فيها اليوم , بسبب هذه الفتنة , وهذا لا يخفى على من له بصيرة ومعرفة بالتوحيد , ولو ذهبنا نعد ما وقع من ذلك لطال الكتاب , وذو البصيرة يرى ويبصر .

وقد ذكرنا شيخنا : الإمام محمد بن عبد الوهاب , رحمه الله , أن الناس في زمانه تنوعت أحوالهم في الدعوة الإسلامية , أربعة عشر نوعاً , ليس منهم يهودي ولا نصراني , ولا رافضي ولا جهمي , ولا معتزلي , وكل هذه الأنواع , قد خالفوا ما جاءت به الرسل من دين الله تعالى , فرحمه الله وأحسن إليه المآب , ولعلك أن تكون من أولئك الأنواع وأنت لا تشعر .

وأما قولك : وكلام الشيخين , تعني شيخ الإسلام ابن تيمية , وشيخنا محمد بن عبد الوهاب , استدللت به , وأطلقته على أناس متصفين بالإسلام .... إلى آخره .

فالجواب : أن يقال لا ريب أن هذا الكلام , لا يقوله من يعرف الإسلام ؛ فإن قلت : أنا أعرفه , فعرفه لنا , وقد كنت سألتك عن

تعريفه , وحقيقته ومقتضاه , ومدلوله ولازمه وحقه , فلم تجب إلا بأن سردت هذه الجمل سرداً , كما سردتها لك في السؤال , فما أجبت عن واحدة منها .

فإذا كنت لا تعرف من الإسلام , إلا ما يعرفه جهلة العوام , فدع عنك التعرض لأهل الإسلام , بالسقسطة في الكلام تصنعاً , عند من لم يعرف الشحم من الأورام , فليتك أمِّي تدري أنك لا تدري , ولم تكن من قبيل من لا يدري أنه لا يدري ؛ لأما سمعت الله يقول : {ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون} [هود : 113] أما علمت : أن النار خلقها الله الأولين والآخرين ، ممن عصى الله وترك الدين , الذي بعث الله به المرسلين .

وما يدريك : أن هذه الآية قد أصيب بها أهل القصيم , في حادثتهم القريبة , نسأل الله العافية في الدنيا و الآخرة ، فإنهم فعلوا كفعل أناس فيكم {وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون }

[الشعراء : 227] وقد فرض الله تعالى : البراءة من الشرك والمشركين , والكفر بهم وعداوتهم , وبغضهم وجهادهم , {فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم } [البقرة : 59] فوالهم وأعانهم , وظاهروهم واستنصروا بهم على المؤمنين , وأبغضوهم وسبوهم من أجل ذلك .

وكل هذه الأمور : تناقض الإسلام , كما دل عليه الكتاب والسنة في مواضع , وذكر العلماء رحمهم الله , في كتب التفسير والفقه و غيرهما ؛ وعند هؤلاء وأمثالهم : أنهم على الدين الذي كانوا عليه لم يفارقوه , وهذا ليس يعجب , فقد بين القرآن العزيز , أن هذا الحال هي طريقة : أمثالهم , كما قال تعالى : {فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلال إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله } [الأعراف : 30] وقوله : {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً } الآيات [الزخرف : 36 - 39] .

فإذا أردت معرفة ما فرضه الله على عباده مما تقدم ذكره ، فاذكر قوله تعالى عن أهل الكهف {وربطنا على قلوبهم إذا قاموا فقالوا : ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا} الآية [الكهف : 14] علموا : أنه لا يصلح لهم دين إلا باعتزالهم ، واعتزال معبوداتهم , ولو لم يجدوا إلا غاراً في الجبل في البرية و وهل قالوا : وأين نهاجر ؟ ولاثم بلد إسلام , ولا إمام لنا ولا أعوان ؟ كما قال هؤلاء الجهلة , الذين آثروا الدنيا على الدين .

وتأمل ما قاله الله في السورة التي بعدها , عن خليله إبراهيم , إمام الحنفاء {إذ قال لأبيه يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً } فمن كان عصياً للرحمن , فطاعته معصية له , ثم قال : {وأعتزلكم وما تدعون من دون الله } الآيتين [مريم : 44 , 48] وقال : {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومه إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبد بيننا وبينكم العداوة و البغضاء أبداً }الآية [الممتحنة : 4] فمن تدبر هذه الآيات : عرف التوحيد الذي بعث الله به رسله , وأنزل به كتبه , وعرف حال المخالفين لما عليه الرسل وأتباعهم , من الجهلة المغرورين الأخسرين .

قال شيخنا : الإمام رحمه الله , في سياق دعوة النبي قريشاً إلى التوحيد , وما جرى منهم عند ذكر آلهتهم , بأنهم لا ينفعون ولا يضرون , أنهم جعلوا ذلك شتماً ؛ فإذا عرفت هذا , عرفت أن الإنسان لا يستقيم له إسلام , ولو وحد الله وترك الشرك , إلا بعداوة المشركين , والتصريح لهم بالعداوة والبغضاء , كما قال تعالى : {لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله } الآية [المجادلة : 22] فإذا فهمت هذا فهماً جيداً , عرفت أن كثيراً ممن يدعي الدين لا يعرفه .
و إلا فما الذي حمل على الصبر على ذلك العذاب , والضرب و الأسر , والهجرة إلى الحبشة , مع أنه أرحم الناس , ولو وجد لهم رخصة أرخص لهم , كيف وقد أنزل الله عليه {ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله } الآية [العنكبوت : 10] فإذا كانت هذه الآية , فيمن وافق بلسانه إذا أوذي , فكيف بغير ذلك ؟ يعني من وافقهم بالقول والفعل بلا أذى , فظاهرهم , و أعانهم , وذب عنهم وعمّن وافقهم , و أنكر على من خالفهم , كما هو الواقع ؛ وتأمل : قول شيخنا رحمه الله , إذا عرفت هذا وقد تقدم ما يدل على هذا , وباله التوفيق .
لقد أحسن من قال من السلف : ليس العجب ممن هلك كيف هلك , وإنما العجب ممن نجا كيف نجا ؛ فإذا كان الأمر هكذا , فلا تأمن على نفسك الارتداد عن الدين , في مثل هذه الفتنة العظيمة , خصوصاً إذا عرفت أن العلماء رحمهم الله , ذكروا الردة من نواقض الوضوء , وذلك : أن الرجل قد يتوضأ مريداً الصلاة ,

فيتكلم , أو يعمل عملاً , أو يعتقد اعتقاداً يفسد إسلامه و فينتقض وضوؤه , عياذاً بالله من مفسدات الدين ، ومحبطات الأعمال .
وأما اعتراضكم على من أنكر هذه الأمور , التي حدثت في الدين , حين استدللت بآية النساء , فهو اعتراض من لا يعرف معناها , ولا ألم بقلبه , ولا أصغى إلى ما ينفعه ؛ ولقد ذكر شيخنا الإمام رحمه الله , حاصل ما ذكره المفسرون , في معنى هذه الآية , فإنه قال في قصة الهجرة : وفيها من الفوائد والعبر ما لا يعرفه أكثر من قرأها , ولكن مرادنا الآن مسألة من مسائلها .
وهي : أن من أصحاب رسول الله من لم يهاجر من غير شك في الدين , ولكن محبة لأهل والمال والوطن , فلما خرجوا إلى بدر , خرجوا معهم كارهين , فقتل بعضهم بالرمي لا يعرفه ؛ فلما سمع الصحابة رضي الله عنهم : أن من القتلى فلاناً , وفلاناً , شق عليهم , وقالوا : قتلنا إخواننا , فأنزل الله : {إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم }الآيات[النساء : 97- 99] فمن تأمل قصتهم , وتأمل قول الصحابة : قتلنا إخواننا , فإن الله قد بين لهم وهم بمكة قبل الهجرة , أن ذلك كفر بعد الإيمان بقوله : {من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان } الآيات [النحل : 106 - 109] .
وأبلغ من هذا : كلام الله فيهم , فإن الملائكة تقول لهم : فيم كنتم ؟ ولم يقولوا : كيف تصديقكم ؟ ولما قالوا كنا مستضعفين في الأرض , لم يقول كذبتم , مثل ما يقول الله والملائكة للمجاهد , الذي يقول : قاتلت فيك حتى قتلت ؛ فيقول الله , كذبت , بل قاتلت ليقال جرئ ؛ وأما هؤلاء فلم يكذبوهم , بل أجابوهم : {ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها }.
ويزيد ذلك إيضاحاً للعارف والجاهل : الآية التي بعدها , وهي قوله : {إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان} الآية , وهذا واضح جداً : أن هؤلاء , هم الذين خرجوا من الوعيد , فلم يبق شبهة , لكن لمن طلب العلم , بخلاف من لم يطلبه , بل قال الله فيهم {صم بكم عمي فهم لا يرجعون } [البقرة :18] ومن هذه المواضيع , فهم كلام الحسن , يعني : الذي قدمت ذكره .
فتأمل كلام شيخنا رحمه الله , وانظر ما وقع في هذه الفتنة , من الاستهزاء بالدين والمسلمين , وغير ذلك مما لا يخفى على عاقل , أنه عداوة لله ودينه , وعداوة لمن ثبت على الدين وعادى المشركين , وانظر ما الذي أوجب تلك المسبة والبغضاء لأهل الإسلام , متناصرين بالانتساب

وأما قول المعترض : واستدللت أيضاً بقوله : {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم }الآيات [التوبة :24] هذه نزلت في أناس تخلف عن الجهاد مع رسول الله ﷺ ... إلخ .

فيقال : من أين لك هذه الدعوة ؟ وفي أي كتاب وجدتها ؟ وحقيقة قولك هذا : الكذب , والقول على الله بلا علم , وهو من أعظم المحرمات , وهو أصل كل باطل ؛ أما تدبر أول الآيات وسياقها , ولو كنت تعرف التدبر لعقلت عن الله خطابه , وهديت إلى فهم مراده , لكنك أخذت الأمر بتعسف من لا يبالي , ولا عنده معرفة شيء سوى تغطية الحق بالجحود والتكذيب .

أما علمت أنا الكفر بآيات الله , إنما هو جحودها , والإلحاد في معناها , وقد كفر الله من آمن بعض الكتاب وكفر ببعض , فإذا أردت الإطلاع على ما قد جحدت من معنى هذه الآيات , فخذ كلام أئمة التفسير المشهور , عند كل من هو به خبير , قال الله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آبائكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان } الآية [التوبة : 23] قال مجاهد بن جبر – صاحب ابن عباس رضي الله عنه - : نزلت في قصة العباس وطلحة , و امتناعهما من الهجرة .

قال الكلبي عن ابن عباس , قال : لما أمر الله نبيه ﷺ بالهجرة إلى المدينة , فمنهم من يتعلق به أهله وولده , ويقولون : ننشدك بالله أن لا تضيعنا , فيرق عليهم ويدع الهجرة , فأنزل الله عز وجل هذه الآية ؛ وقوله : { ومن يتولهم منكم }فيطلعهم على غرة المسلمين , ويؤثر المقام معهم على الهجرة والجهاد , كما هو حال الكثير في هذه الفتنة { فأولئك هم الظالمون } .

ثم قال : {قل} يا محمد لهؤلاء المتخلفين عن الهجرة { إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم }الآيات , وذلك أنه لما نزلت الآية الأولى , قال الذين أسلموا ولم يهاجروا : إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا , وذهبت تجارتنا , وخرجت دارنا , وقطعنا أرحامنا , فأنزل الله : { إن كان آباؤكم } الآية [التوبة : 24] .

فإذا كانت هذه الآيات , نزلت فيمن لم يهاجر ويجاهد , فقد أصابكم حكمهم , بترككم الهجرة والجهاد , وقد قال ﷺ فيمن توقف عن مبايعته على الهجرة والجهاد ((فإذا كان لا هجرة ولا جهاد فبم تدخل الجنة)) فحصل لكم بترك الفرضين ما حصل من المتابعة والموافقة , حتى عكستم الحكم , فعاديتم من عادى المشركين , ورمتم هدم الإسلام وحقوقه و واجباته , فلم يبق بأيدكم إلا

استحسان هذه الحالة , ورد الحوض و غمط الناس ممن أقام على الدين , وعادى المشركين {وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون } الآية [الشعراء : 227] .

وما ذكرت من قول رسول الله : ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)) فهو حديث صحيح , وهو حجة عليك لا لك , فانظر من الذي يسب المسلمين , ويتولى المشركين , ويعادي من سبهم , فإن كنا قد سببنا مسلماً يؤمن بالله واليوم الآخر , ويوالي أولياء , ويعادي أعداءه , وأنتم تذبون عن كل مسلم هذا وصفه , وتسبون من سبه , فأنتم أسعد منا بالدليل ؛ وإن كان هذا وصفكم , فما احتججتم به فهو حجة خصمكم , وهذا لا يشك فيه عاقل , أصلاًأنا لا نسب من ثبت على الإسلام , وأما أنتم فأكثرتم سبابه وتضليله , والله المستعان .
وأما ما ذكرت من سياقه قول ابن كثير أن الهجرة لا تجب إلا على من لا يقدر على إظهار دينه إلى آخره ؛ فهذا معنى ما ذكره العلماء في كتبهم , وهذا لا نزاع فيه عند أكثر العلماء , ولكن عرفنا من لم تجب عليه الهجرة بإظهار دينه وهو آمن بذلك معروف فيكم لم يستهزئ بأهل الإسلام , أو لم يركن إلى من استهزأ بهم ويعين أهل الباطل بلسانه ؛ فيا ليت شعري من هو الذي فيكم يطهر دينه ؟
وقد كنت أسأل عمن كنت أرى لهم معرفة , فما أخبرني احد عنهم بما يسرني في ذلك , وهذه فتنة عمت فأعمت وأصمت فإنا لله وإنا إليه راجعون , فإن كنت ترى أن اعتراضك على من استدل بالآيات والأحاديث على تحريم موالاة المشركين إظهار للدين فالمصيبة أعظم ولا أخالك تسلم من ذلك لقوله : {وللبسنا عليهم ما يلبسون }[الأنعام : 9]وأنى لك بالسلامة وقد زلت بك القدم .
ثم : إن ما ذكرته عن ابن كثير يناقض ما كنت تدعيه من أنكم على الإسلام والتوحيد , فإذا كنتم على الإسلام والتوحيد حقيقة فلأي شيء يقال تجب الهجرة أو لا تجب ؟ فلا محل لقول ابن كثير وغيره , هذا إنما يذكر في حال بلد ليسوا على الإسلام , وفيهم من يظهر دينه باعتزالهم في مجالسهم وأسواقه ومجامعتهم , ويظهر البراءة منهم ومن أعمالهم ويصبر على أذاهم .
وأما قولك : ولا وجه لاستدلالك علينا بهذه الآية , فإن هذه الآية جهادية مع إمام متبع , وهو رسول الله , فإذا كان هنالك إمام متبع و فعرِّفنا لعلنا نتبعه .

فأقول : قد بينا خطابك في قولك : أن الآية جهادية , وأنه قول على الله وفي كتابه بلا علم , وقد قال الله تعالى : {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون }[الأعراف : 33] .

ويقال : بأي كتاب , أم بأية حجة أن الجهاد لا يجب إلا مع إمام متبع ؟! هذا من الفرية في الدين , والعدول عن سبيل المؤمنين , والأدلة على إبطال هذا القول أشهر من أن تذكر , من ذلك عموم الأمر بالجهاد , والترغيب فيه , والوعيد في تركه , قال تعالى : {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض }[البقرة : 251] وقال في سورة الحج : {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع }الآية [40] .

وكل من قام بالجهاد في سبيل الله , فقد أطاع الله وأدى ما فرضه الله , ولا يكون الإمام إماماً إلا بالجهاد , لأنه لا يكون جهاد إلا بإمام , والحق عكس ما قلته يا رجل , وقد قال تعالى : {قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوم لله مثنى وفرادى} الآية[سبأ : 46] وقال : {ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه }[العنكبوت : 6] .

وفي الحديث ((لا تزال طائفة)) الحديث و والطائفة بحمد الله موجودة مجتمعة على الحق , يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم , قال تعالى : {يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه } إلى قوله : {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم} الآيات [المائدة :54-56] أي واسع الفضل والعطاء عليم بمن يصلح للجهاد .

والعبر , والأدلة : على بطلان ما ألفته , كثير في الكتاب , والسنة , والسير ، والأخبار , وأقوال أهل العلم بالأدلة والآثار لا تكاد تخفى على البليد إذا (((بياض في الأصل))) علم بقصة أبي بصير , لما جاء مهاجراً فطلبت قريشاً من رسول الله ﷺ أن يرده إليهم , بالشرط الذي كان بينهم في صلح الحديبية , فانفلت منهم عندما قَتَلَ المشركَيْن , اللذين أتيا طلبه .

فرجع إلى الساحل , لما سمع رسول الله ﷺ يقول : ((ويل أمه مسعر حرب , لو معه غيره)) فتعرض لعير قريش – إذا أقبلت من الشام – يأخذ ويقتل , فاستقل بحربهم دون رسول الله ﷺ لأنهم كانوا معهم في صلح الحديبية – القصة بطولها – فهل قال رسول

الله [illegible] , لأنكم لستم مع إمام ؟ سبحان الله ما أعظم مضرة الجهل على أهله ؟ عياذاً بالله من معارضة الحق بالجهل والباطل , قال الله تعالى : {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك }الآية[الشورى: 13] .

ومعلوم : أم الدين لا يقوم إلا بالجهاد , ولهذا أمر النبي [illegible]

[illegible]

)) [illegible] إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر , وبأقوام لا خلاق لهم))
ولو ترك الجهاد معه لفجوره لضعف الجهاد , وحصلت الفرقة والتخاذل , فيقوى بذلك أهل الشرك والباطل , الذين غرضهم الفساد وذهاب الدين , فإذا أبتلي الناس بمن لا بصيرة له ولا علم ولا حلم , ونزل المشركين وأهل الفساد من قلبه منزلة أهل الإسلام , لطمع يرجوه منهم , أو من أعوانهم , وأعانهم على ظلمهم , وصدقهم في كذبهم , فإنه لا يضر إلا بنفسه , ولا يضر الله شيئاً .

ويقال أيضاً : كل من أقام بإزاء العدو وعاداهم , واجتهد في دفعه , فقد جاهد ولا بد ؛ وكل طائفة تصادم عدو الله , فلابد أن يكون لها أئمة ترجع إلى أقوالهم وتدبيرهم ، وأحق الناس بالإمامة من أقام الدين الأمثل فالأمثل , كما هو الواقع , فإن تابعه الناس أدوا الواجب , وحصل التعاون على البر والتقوى , وقوى أمر الجهاد , وإن لم يتابعوه أثموا إثماً كبيراً بخذلانهم الإسلام .

وأما القائم به : فكلما قلت أعوانه وأنصاره ، صار أعظم لأجره , كما قال تعالى : {وجاهدوا في الله حق جهاده} [الحج : 78]وقال : {والذين جاهدوا فينا }الآية[العنكبوت : 69]وقال : {أذن للذين يُقَاتَلون }الآية[الحج : 39] وقال : {يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم }الآية[المائدة : 54] وقال : {فاقتلوا المشركين } الآية[التوبة : 5] وقال : {كم من فئة }الآية[البقرة : 249] وقال :

{يا أيها النبي حرض المؤمنين }الآية[الأنفال : 65] وقال : {كتب عليكم القتال }الآية[البقرة : 216] .

ولا ريب : أن فرض الجهاد باقي إلى يوم القيامة , والمخاطب به المؤمنون ؛ فإذا كان هناك طائفة مجتمعة لها مَنَعَة وجب عليها أن تجاهد في سبيل الله بما تقدر عليه , ولا يسقط عنها الفرض بحال , ولا عن جميع الطوائف , لما ذكرت من الآيات , وقد تقدم الحديث ((لا تزال طائفة)) الحديث .

فليس في الكتاب والسنة : ما يدل على أن الجهاد يسقط في حال دون حال , ولا يجب على أحد دون أحد , إلا ما استثنى في سورة براءة ؛ وتأمل قوله : {ولينصرن الله من ينصره }الآية[الحج : 40] وقوله : {ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا }الآية[المائدة : 56] وكل يفيد العموم بلا تخصيص ؛ فأين تذهب عقولكم عن هذا القرآن ؟

وقد عرفت ما تقدم : أن خطاب الله تعالى يتعلق بكل مكلف , من الأولين والآخرين , وأن في القرآن خطاباً ببعض الشرائع , خرج مخرج الخصوص , وأريد به العموم , كقوله تعالى : {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين}الآية[التوبة : 73] وقد تقدم إلى ما يشير إلى هذا بحمده الله ,وذلك معلوم عند العلماء ، بل عند كل من له ممارسة في العلم والأحكام , فلهذا اقتصرنا على هذا القول , وبالله التوفيق .

ثم بعد الفراغ : أظهر الله إماماً يجاهد في سبيله , ويدعوهم إلى الإسلام والاجتماع عليه , فتمت النعمة علينا , وعلى أهل نواحينا , بما أعطانا من النصر , وذهاب الشرك والمشركين , والفساد المفسدين , نسأل الله أن يوزعنا شكر ما أنعم به علينا , من نعمة الإسلام , والله ولي حميد , و هو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

وله أيضاً : قدس الله روحه ونور ضريحه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين , وبه العون على إبطال زخرف الملحدين , وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له , ولا ند ولا معين , وأشهد أن محمداً عبده ورسوله , الصادق الأمين ؛ وصلى الله عليه وعلى آله وصحبه , الذين يحبهم ويحبونه , أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين , وعلى أتباعهم الذين شهدوا لله بالوحدانية ولرسوله بالبلاغ المبين , وسلم تسليماً .

أما بعد : فاعلم أيها الطالب للهدى , المتباعد عن أسباب الضلال والردى , أني رأيت ورقة لبعض الناكبين عن الحق المبين , المعرضين عن توحيد رب العالمين , فإذا هي مفصحة عن ضلال مفتريها , معلنة بفساد طوية منشيها ومتلقيها ؛ مع تناقض وبشاعة ما فيها , فتارة تراه سائلاًمسترشداً ، وتارة مفتياً مضِلّاًمفنداً ,لا يدري ولا يدري أنه لا يدري . فعزمت على أن أعرض ((ورقته)) على بعض أصحابنا الذين لهم ملكة في معرفة العلوم , ولهم بصر ناقد , وفهم مستقيم في تمييز الصحيح من السقيم , لاكتفى بهم في رد ذلك الزيغ والضلال , والكذب المحال , على طريق التفصيل تارة والإجمال , وهذا الرجل وإن كان من أجهل العوام , فإنه يحاول بسجعه نقض عرى الإسلام .

ثم إني عزمت : على ما بناه من ذلك الباطل , على استفراغ وسع واستمهال , وذلك أولى من الترك والإهمال , و {الحمد لله الذي هادنا لهذا وما كنا لنهتدي لولا هدانا الله }الآية[الأعراف : 43] فأخذت في رد قوله مستعيناً بربنا العظيم , مستعيذاً بالله من شر متبعي خطوات الشيطان الرجيم , وحسبنا الله ونعم الوكيل على من صد الناس عن سواء السبيل .

قال محمد بن نصر : حدثنا إسحاق , أنبأنا عبد الرحمن بن مهدي , عن حماد بن زيد , عن عاصم بن بهدلة , عن أبي وائل , عن عبد الله قال : خط لنا رسول الله خطاً , ثم قال ((هذا سبيل الله)) ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله , وقال هذه سبل , وعلى كل سبيل منها شيطان يدعوا إليه , وقرأ {وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه }الآية[الأنعام : 153] .

قلت : وهنا بلية ينبغي التنبيه عليها , قبل الشروع في المقصود , وهي : أن كثيراً من أهل الأزمنة وقبلها , قد غرهم من أنفسهم أمران .

أحدهما : أنهم إن أحسنوا القول رأوه كافياً , ولو ضيعوا العمل وارتكبوا النقيض , وما عرفوا أقوال الصادق المصدوق في الخوارج , يقولون من قول خير البرية ((يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)) .

وهذا كثير في الكتاب و السنة , يذم ويمقت من يقول ولا يفعل , ومن يخالف قوله فعله , كقوله تعالى {كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون} [الصف : 3] وكقوله تعالى : {وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن

مستهزءون } [البقرة : 14] وقد ورد ((ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال)) .
الأمر الثاني : أن الأكثر ظنوا أن انتسابهم إلى الإسلام , ونطقهم بالشهادتين ، عاصم للدم والمال , وإن لم يعملوا بمدلول لا إله إلا الله , من نفي الشرك , وتركه , وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى , كالدعاء , والرجاء , والتوكل , وغير ذلك ؛ ولم يعرفوا معنى قول الله تعالى : {فاعبد الله مخلصاً له الدين * ألا لله الدين الخالص} [الزمر : 2-3] وقوله تعالى : {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة[البينة : 5] وقوله : {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم} [التوبة : 5].
فإن قوله : { مخلصاً } حال من ضميرِ الفاعل المستتر , في قوله : { فاعبد الله } أي حالة كونك مخلصاً له الأعمال الباطنة والظاهرة , وكذلك في قوله : { مخلصين } حالة من الضمير البارز في قوله : { إلا ليعبدوا } أي حالة كونهم مخلصين له إرادتهم وأعمالهم , دون كل ما سواه , ولهذا قال : { حنفاء } والحنيف هو الموحد المقبل على الله , المعرض عن كل ما سواه , وهذا هو التوحيد الذي خلقوا له , وبعث الله به رسله وأنزل به كتبه .
يقرر ذلك : ما أخبر به قوم هود , لما قال لهم : {يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون} [الأعراف : 65] فأجابوا ذلك بقولهم : {أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا} [الأعراف : 70] وفي قصة صالح , لما قال لقومه : {يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره}[هود : 61] {قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب}[هود : 62] وكما قال قوم شعيب {يا شعيب أصلاتك تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا}الآية [هود : 87] .
فلا إله إلا الله , ما أشبه حال الأكثرين من هذه الأمة بحال تلك الأمم , لما دعوا إلى هذا التوحيد , الذي هو أصل دين الإسلام , وهو دين الله الذي لا يقبل من أحد ديناً سواه , وبه أرسل جميع الرسل , وأنزل به جميع الكتب , قال تعالى : {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون }[الأنبياء : 25] وقال تعالى : { كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * أن لا تعبدوا إلا الله }الآية [هود : 1-2] إلى أمثال هذه الآيات , وقد صح : أن رسول الله لما قال لقومه : ((قولوا لا إله

إلا الله تفلحوا)) قالوا : {{ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب }} كما هو مذكور في القرآن العزيز .
فأي دليل أصرح , وأوضح , وأبين من هذه الأدلة , على أن الرسل من أولهم إلى أخرهم : إنما بعثوا بإخلاص العبادة لله تعالى , والنهي عن عبادة كل ما هو سواه , وهذا هو التوحيد الذي جحدته الأمم , وهو الذي خلق الله له الخليفة من الثقلين , كما قال تعالى : {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون }الآية [الجن : 18] قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه – في معنى هذه الآية – إلا لآمرهم أن يوحدون .
وقد عرفت : أن هذا أصل الدين , الذي هو أساس الملة , قال تعالى : {قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين * فأقم وجهك للدين القيم}الآية [الروم :42- 43] وقال تعالى : { وإذا قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبيه لعلهم يرجعون }الآية [الزخرف : 26-28] أي لا إله إلا الله , والخليل عليه السلام أتى بمضمون الكلمة هذه الكلمة , بقوله : {{ إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني }} .
وأبدى سبحانه وأعاد في هذا الكتاب المجيد , في النهي عن الشرك المنافي لهذا التوحيد , وأفصح عن كفر فاعله , و أسجل عليه بالوعيد الشديد , فقال : {ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون } إلى قوله : {وكانوا بعبادتهم كافرين } [الأحقاب : 5- 6] وقال تعالى : { إن تدعوهم لا يسمعوا دعائكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم و يوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير} [فاطر : 14] وقال تعالى : { فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين * وأنذر عشيرتك الأقربين} [الشعراء : 213-214] .
وقال تعالى : {ومن يدعو مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون } [المؤمنون : 117] وقال تعالى : { حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين } [الأعراف : 37] وقوله : { ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون * من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً } [غافر : 73-74] وغير ذلك من الآيات , فأي بيان أوضح من هذا , في تعريف الشرك الذي حرمه الله , وأخبر أنه لا يغفره ؟

وهذا لا يختص بالدعاء , بل كل نوع من أنواع العبادة , صرفه لغير الله شرك عظيم .

والتحقيق : أن الدعاء نوعان ؛ دعاء مسألة , ودعاء عبادة , وكلا النوعين لا يجوز صرفه إلا لله , وصرفه لغير الله شرك , كما سبق بيانه في الآيات المحكمات , كما قال تعالى : { قل إن صلاتي و نسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمون } [الأنعام : 162-163]والصلاة هنا تشمل الصلاة الشرعية , واللغوية هي الدعاء كما هو مذكور في كتب التفسير , وفي حديث ابن عباس ((وإذا سألت فاسأل الله , وإذا استعنت فاستعن بالله)) وفيه معنى {{ إياك نعبد وإياك نستعين }} .

وقال تعالى : { فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه } [العنكبوت : 17] وهذا من عطف العام على الخاص , وقال : { فإياي فارهبون } [النحل : 51] { فإياي فاعبدون } [العنكبوت : 56] { وإياي فاتقون } [البقرة : 41] كما قال تعالى : { وإلى ربك فارغب } [الشرح : 8] وقال : { فصلي لربك وانحر } [الكوثر : 2] وتقديم المعمول في هذه الآيات يفيد الحصر , أي لا غيري , وقال : { فلا تخشوا الناس و اخشون } [المائدة : 44] وقال : { فلا تخافوهم و خافون } [آل عمران : 175] .

وهذه الآيات : وما معناها : تدل على أن الله تعالى ؛ إنما أراد من عباده أن يوحدوه بأعمالهم , وأن لا يجعلوا له شريكاً في العبادة , كما قال تعالى : { قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهاكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعباده ربه أحداً } [الكهف : 110] وقال : { إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني * وأقم الصلاة لذكري } [طه : 14] وقال موسى عليه السلام لبني إسرائيل , لما عبدوا العجل { إنما إلهاكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً } [طه : 98] وقال تعالى : { إن إلهاكم لواحد* رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق } [الصافات : 4- 5] .

وقال : { قل أرأيتم شركاءكم الذي تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات }الآية [فاطر : 40] وقال : { وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً } [الجن: 18] وقال تعالى : { إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون } [الأنعام : 121] وهذا هو الشرك في الطاعة , كما قال تعالى : { اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً

من الله والمسيح ابن مريم } [التوبة : 31] فذكر في هذه الآية الشرك في الطاعة , والشرك في الألوهية , وهذا بين من حديث عدي بن حاتم , رضي الله عنه .
وأما الربوبية : فقد أقر بها أكثر المشركين من الأمم , أعداء الرسل ، وهذا مبين في قصص الأنبياء ، كما في سورة الأعراف ، وهود , والشعراء , وغير ذلك ؛ والخصومة بينهم وبين الأمم : إنما هي فيما بعثوا به إليهم , من النهي عن الشرك في العبادة , كالمحبة والدعاء , والتوكل والرجاء , وغير ذلك ؛ والاعتماد على ما قالوه , مما يخالف شرع الله وأحكامه .

وعن ابن مسعود : عن رسول الله قال : ((من مات وهو يدعو لله ندا دخل النار)) رواه البخاري ؛ ولمسلم عن أبي مالك الأشجعي ، عن أبيه عن النبي أنه قال : ((من قال لا إله إلا الله , وكفر بما يعبد من دون الله , حرم ماله ودمه , وحسابه على الله)) .
قال شيخنا رحمه الله تعالى : وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله , فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للمال والدم ، بل ولا كونه يدعوا إلا الله وحده , حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله , فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه ؛ فيا لها من مسألة ما أجلها ، و ياله من بيان ما أوضحه , وحجة ما أقطعها للمنازع ؛ وكلام العلماء في بيان هذا التوحيد وتقريره ، وبيان ما وقع فيه الأكثر من الشرك ، وعبادة الأوثان ، أكثر من يحصى , ونذكر طرفاً منه :
قال شيخ الإسلام ابن تيمية , رحمه الله تعالى في ((الرسالة السنية)) لما ذكر الخوارج و مروقهم من الدين , فإذا كان على عهد النبي وخلفائه : من انتسب إلى الإسلام ومرق منه , مع عبادته العظيمة ؛ فليعلم : أن المنتسب إلى الإسلام في هذه الأزمان , قد يمرق أيضاً , وذلك بأسباب ؛ منها : الغلو في ذمه الله في كتابه , حيث قال : { يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم } الآية [النساء : 171] وعليٌّ رضي الله عنه حرق الغالية , فأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كندة , فقذفهم فيها , واتفق الصحابة على قتلهم ؛ وكذلك الغلو في بعض المشائخ , بل الغلو على علي بن أبي طالب , بل الغلو في المسيح ونحوه .
فكل من غلا في نبي ، أو رجل صالح , وجعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يقول : يا سيدي فلان انصرني , أو أغثني , أو ارزقني , أو

اجبرني , أو أن في حسبك , ونحو هذه الأقوال , فكل هذا شرك وضلال , يستتاب صاحبه , فإن تاب و إلا قتل ؛ فإن الله تعالى : إنما أرسل الرسل ليعبدوه وحده , و لا يجعلوا معه إلهاً آخر .
والذين يدعون مع الله آلهة أخرى , مثل المسيح , والملائكة , والأصنام , لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق , أو تنزل المطر وتنب النبات , وإنما كانوا يعبدون قبورهم , أو صورهم , ويقولون : ما نعبدهم إلا ليقربون إلى الله زلفى , ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله , فبعث الله رسوله : ينهى أن يدعى أحد من دون الله , ولا دعاء عبادة , ولا دعاء استعانة ، فقال تعالى : { قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب}الآية [الإسراء : 56 - 57] .
وقال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون المسيح , و عزيراً , والملائكة , إلى أن قال : وعبادة الله وحده لا شريك له , هي أصل الدين , وهي التوحيد الذي بعث الله به الرسل , وأنزل به الكتب , قال تعالى : { ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت } [النحل : 36] وقال : { وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون } [الأنبياء : 25] .
وكان رسول الله يحقق التوحيد , ويعلمه أمته , حتى قال له رجل : ما شاء الله وشئت , قال ((جعلتني لله ندا , بل قل ما شاء الله وحده)) وقال : ((لعن الله اليهود والنصارى , اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد , يحذر ما فعلوا)) وقال ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد)) وقال : ((لا تتخذوا قبر عيداً , ولا بيوتكم قبوراً , وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم)) ولهذا اتفق أئمة الإسلام , على أنه لا يشرع بناء المساجد على القبور , ولا الصلاة عندها , وذلك لأن من أكبر أسباب عبادة الأوثان , كان تعظيم القبور .
واتفق العلماء – من السلف وأهل السنة والجماعة – أنه من سلم على النبي عند قبره , أنه لا يتمسح بحجرته ولا يقبلها , لأنه إنما يكون لأركان بيت الله , فلا يشبه بيت المخلوق بيت الخالق , كل هذا لتحقيق التوحيد , الذي هو أصل الدين ورأسه , الذي لا يقبل الله عملاً إلا به , ولا يغفر لمن تركه ، كما قال تعالى : { إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً } [النساء : 48] .

ولهذا كانت كلمة التوحيد : أفضل الكلام وأعظمه , فأعظم آية في القرآن آية الكرسي {الله لا إله إلا هو الحي القيوم } [البقرة : 225] وقال : ((من كن آخر كلامه من الدنيا , لا إله إلا الله , دخل الجنة)) والإله هو الذي يألهه القلب , عبادة له , واستعانة به , ورجاء له , ومحبة , وخشية , وإجلالاً, انتهى .

وقال العلامة ابن القيم : وأما الشرك فهو نوعان أكبر وأصغر , فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه , وهو أن يتخذ من دون الله ندا , يحبه كما يحب الله , بل أكثرهم يحبون آلهتهم أكثر من محبة الله , ويغضبون لمنتقصي معبوديهم من المشائخ , أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين , وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة , ويزعمون أنه باب حاجة إلى الله , وشفيعه عنده , وهكذا كان عباد الأصنام سواء , وهذا القدر هو الذي قام في قلوبهم , وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم , من الحجر والبشر .

قال تعالى حاكياً عن أسلاف هؤلاء {والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربون إلى الله زلفى } إلى قوله {إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار } [الزمر : 3] وما أعز من يتخلص من هذا , بل ما أعز من لا يعادي من أنكره , والذي قام بقلوب هؤلاء المشركين ، وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه , وأبطله , وأخبر أن الشفاعة كلها له , وذكر قول الله تعالى : {قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم ظهير* ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له} الآية [سبأ : 22 - 23] .

ثم قال : والقرآن مملوء من أمثالها , ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته , و يظنه في قوم قد خلوا ولم يعقبوا وارثاً , وهذا هو الذي يحول بين القلب وفهم القرآن , كما قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة , إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية , وهذا لأنه لم يعرف الشرك , وما عابه القرآن وذمه , فوقع فيه وأقره , وهو لا يعرف أنه الذي كان عليه أهل الجاهلية , فتنقض بذلك عرى الإسلام , ويعود المعروف منكراً والمنكر معروفاً , والبدعة سنة , والسنة بدعة , ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد , ويبدع بمتابعة الرسول ومفارقة الأهوى والبدع , ومن له بصيرة وقلب حي , يرى ذلك عياناً , والله المستعان .

ثم قال : وأما الأصغر فكيسير الرياء , والحلف بغير الله , وقوله هذا من الله ومنك , وأنا بالله وبك , ومالي إلا الله وأنت , وأنا متوكل على الله وعليك , ولولا أنت لم يكن كذا وكذا ؛ وقد يكن شركاً أكبر بحسب حال قائله ومقصده .

قلت : فلما قال : وقد يكون أكبر , أخذ يبين أنواع الأكبر , فقال : ومن أنواعه النذر لغير الله , والتوكل على غير الله , والعمل لغير الله , والإنابة لغير الله , والخضوع والذل لغير الله , وابتغاء الرزق من غيره , وإضافة نعمه إلى غيره ؛ ومن أنواعه : طلب الحوائج من الموتى , والاستغاثة بهم , والتوجه إليهم , وهذا أصل شرك العالم , فإن الميت قد انقطع عمله , وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً , فضلاً لمن استغاث به , وسأله أن يشفع له عند الله .

وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده , فإن الله تعالى لا يشفع عنده أحداً إلا بإذنه , والله لم يجعل سؤال غيره سبباً لإذنه , وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد , فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن ؛ والميت يحتاج إلى من يدعو له , كما أوصانا النبي إذا زرنا قبور المسلمين , أن نترحم عليهم , ونسأل الله لهم العافية والمغفرة , فعكس المشركون هذا , وزاروهم زيارة العبادة , وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد , فجمعوا بين الشرك بالمعبود , وتغيير دينه , ومعاداة أهل التوحيد , ونسبتهم إلى التنقص بالأموات .

وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك , وأولياءه الموحدون بذمهم , ومعاداتهم , و تنقصوا من أشركوا به غاية التنقص , إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا , وأنهم أمروهم , وهؤلاء أعداء الرسل في كل زمان ومكان , وما أكثر المستحبيبين لهم ؛ ولله در خليله إبراهيم , حيث يقول : {واجنبني وبني أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيراً من الناس} [إبراهيم : 35 – 36] وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر , إلا من توحيده الله , وعادى المشركين في الله , وتقرب بمقتهم إلى الله , انتهى .

فرحمة الله ومغفرته ومرضاته على هذا الشيخ , ما أحسن بيانه وأوضحه , فقد صرح بأن هذا هو الشرك الأكبر , فبطل ما افتراه عليه المشركون ؛ وهذا الذي ذكره , هو الذي عمت به البلوى في كثير من الأمصار , في هذه الأعصار , وهو الشرك الأكبر , والذنب الذي لا يغفر , إلا أن يتاب منه قبل الوفاة .

وقال رحمه الله , في الكافية الشافية شعراً :

والشرك فهو توسل مقصوده الز   لفى من الرب العظيم الشان
بعباده المخلوق من حجر ومن   بشـر ومن قبر ومن أوثان

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أياً كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ويحبه كمحبة الديان

قال في الإقناع , قال شيخ الإسلام : من دعا عليَّ بن أبي طالب فهو كافر , ومن شك في كفره فهو كافر .
وقال أيضاً : من جعل بينه وبين الله وسائط , يدعوهم ويسألهم , ويتوكل عليهم , كفر إجماعاً .
وقال العلامة في الكافية أيضاً :

فتوسط الشفعاء والشركاء والظـ ـهـراء أمر بين البطلان
ما فيه إلا محض تشبيه لهم بالله وهو فاقبح البهتان

وقال بعض شيوخنا رحمهم الله تعالى :

نفوس الورى إلا القليل ركونها إلى الغي لا يلفى لدين حنينها
فسل ربك التثبيت أي موحد فأنت على السمحاء باد يقينها
وغيرك في بيدا الضلالة سائر وليس له إلا القبور يدينها

وقال محمد بن إسماعيل , الأمير الصنعاني رحمه الله :
الأصل الرابع , أن المشركين الذين بعث الله الرسل إليهم , مقرون أن الله خلقهم {ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم } [الزخرف : 9] وبأنه الرازق الذي يخرج الحي من الميت , ويخرج الميت من الحي , وأنه الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض , وأنه الذي يملك السمع والأبصار والأفئدة {قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون } [يونس : 31] {قل لمن الأرض ومن فيها ن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون } [المؤمنون : 84- 89] .
وهذا فرعون مع علوه في كفره , ودعواه أقبح دعوه , ونطقه بالكلمة الشنعاء , يقول الله في حقه , حاكياً عن موسى عليه السلام : {لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر } [الإسراء : 102] وقال إبليس : {إني أخاف الله رب العالمين } [الحشر : 16]وقال : {رب بما أغويتني} [الحجر : 39] وقال : {رب فأنظرني } [الحجر : 36] وكل مشرك مقر بأن الله خالقه , وخالق السموات والأرض , ورب ما فيهما , ورازقهم ,

ولهذا تحتج الرسل بقولهم : {أفمن يخلق كمن لا يخلق} [النحل : 17] وبقولهم : {إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له } [الحج : 73] والمشركون مقرون بذلك لا ينكرون .

الأصل الخامس : أن العبادة أقصى باب الخضوع والتذلل , ولم تستعمل إلا في الخضوع لله , لأنه مولي أعظم النعم , حقيق بأقصى غاية الخضوع , كما في الكشاف ؛ ثم إن رأس العبادة وأساسها التوحيد لله , الذي تفيده كلمته التي إليها دعت جميع الرسل , وهي لا إله إلا الله , والمراد اعتقاده معناها لا مجرد قولها باللسان , ومعناها إفراد الله بالعبادة والإلهية , والنفي والبراءة من كل معبود دونه , وقد علم الكفار هذا المعنى , لأنهم أهل اللسان العربي , فقالوا : {أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب} [ص : 5] انتهى .

وقال شيخ الإسلام , ابن تيمية رحمه الله تعالى : تواترت الأحاديث , بأنه يحرم على النار من قال لا إله إلا الله , ومن شهد أن لا إله إلا الله , وأن محمداً رسول الله , لكن جاءت مقيدة بالإخلاص واليقين , والموت عليها , وكلها مقيدة بالقيود الثقال , وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص , ولا اليقين ؛ وغالب أعمال هؤلاء إنما هو تقليد و إقتداء بأمثالهم , وهم أقرب الناس من قوله تعالى , حاكياً عن المشركين {إنا وجدنا آباءنا على أمة وإن على آثارهم مقتدون } [الزخرف : 23] .

وحينئذ : فلا منافاة بين الأحاديث , فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين , ومات على ذلك , امتنع أن تكون سيئاته راجحة عل حسناته , بل كانت حسناته راجحة ، فيحرم على النار , لأنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام , لم يكن في هذه الحال مصراً على ذنب , فإن كمال الإخلاص ويقينه , موجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء سواه , وأخوف عنده من كل شيء , فلا يبقى في قلبه يومئذ إرادة لما حرم الله , ولا كراهة لما أمر الله , فهذا هو الذي يحرم على النار , وإن كان له ذنوب قبل ذلك , فهذا الإيمان , وهذه التوبة , وهذا الإخلاص , وهذه المحبة , وهذا اليقين والكراهة لا يتركن له ذنباً إلا محي عنه , كما يمحو النهارُ الليلَ ؛ فمن قالها على وجه الكمال المانع , من الشرك الأكبر والأصغر , فهذا غير مصر على ذنب أصلاً , فيغفر له , ويحرم على النار ؛ وإن قالها على وجه , خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر , ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك , فهذه الحسنات لا يقاومها شيء من السيئات , فيرجح بها ميزان الحسنات , كما في حديث الطاقة .

وقال رحمه الله : وأصل الدين ، أن يكون الحب لله , والبغض لله , والموالاة لله , والمعاداة لله , والعبادة لله , و الاستعانة بالله , والخوف من الله , والرجاء لله , والإعطاء لله , والمنع لله , وهذا إنما يكون بمتابعة رسول الله , ونهيه نهى الله , ومعاداته معاداة الله , وطاعته طاعة لله , ومعصيته معصية لله , وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه , فلا يستحضر ما له ورسوله في ذلك , ولا يطلبه ولا يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه , ويغضب إذا حصل ما يغضبه لهواه , ويكون مع ذلك معه شبهة دين , أن الذي يرضى له ويغضب له , هو السنة .

فإن قدر : أن الذي معه دين الإسلام , ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله , بل قصد الحمية لنفسه وطائفته , أو الرياء ليعظم أو يثنى عليه , أو فعل ذلك شجاعة وطبعاً , أو لغرض من الدنيا , لم يكن لله , ولم يكن مجاهداً في سبيله , قال تعالى : {وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة * وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء} [البينة : 4 – 5] .

وقال رحمه الله تعالى , في مناهج السنة , لما ذكر كلام صاحب المنازل , وأن التوحيد عنده على ثلاثة أوجه , الأول : توحيد العامة , وهو شهادة أن لا إله إلا الله , الأحد الصمد , الذي لم يلد ولم يولد , ولم يكن له كفواً أحد , هذا هو التوحيد الظاهر الجلي , الذي نفى الشرك الأعظم , وعليه نصبت القبلة , وبه وجبت الذمة , وبه حقنت الدماء والأموال , وانفصلت دار الإسلام من دار الكفر ؛ هذا كلام صاحب المنازل , وذكر بعد الوجهين , وذكر شيخ الإسلام ما فيها من الشطح والبدعة .

ثم قال شيخ الإسلام : أما التوحيد الأول الذي ذكره , فهو التوحيد الذي جاءت به الرسل , ونزلت به الكتب , وبه بعث الله الأولين والآخرين من الرسل ، قال تعالى : {واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون } [الزخرف :45]
وقال تعالى : {ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة} [النحل : 36] وقال تعالى : {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء : 25] .

وقد أخبر الله تعالى عن كل من الرسل , مثل نوح وهود , وصالح وشعيب , وغيرهم , وأنهم قالوا لقومهم : {اعبدوا الله مالكم من إله غيره } وهذا أول دعوة الرسل , و أخرها , قال النبي في

الحديث الصحيح المشهور ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله , فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها , وحسابهم على الله عز وجل)) وقال النبي في الحديث الصحيح أيضاً : ((من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة)) وقال : ((من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)) والقرآن كله مملوء من تحقيق هذا التوحيد ,والدعوة إليه , وتعليق النجاة والفلاح , وأقصى السعادة في الآخرة به .

ومعلوم : أن الناس متفاضلون في تحقيقه , وحقيقته إخلاص الدين كله , والفناء في هذا التوحيد , مقرون بالبقاء ؛ وهو : أن تثبت إلهية الحق في قلبك , وتنفي إلهية ما سواه ، فتجمع بين النفي و الإثبات هو البقاء , وحقيقته : أن تفني بعبادته عن عبادة ما سواه , وبطاعة عن طاعة ما سواه , وبخشيته عن خشية ما سواه , وبسؤاله عن سؤال ما سواه , و بالاستعاذة به عن الاستعاذة بما سواه , وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه , وبالتوكيل عليه عن التوكل على ما سواه , وبالتفويض إليه عن التفويض إلى ما سواه , وبالتحاكم إليه عن التحاكم إلى ما سواه , وبالتخاصم إليه عن التخاصم إلى ما سواه .

وفي الصحيحين , عن النبي أنه كان يقول إذا قام يصلي من الليل , بعد التكبير ((اللهم لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن , ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن , ولك الحمد أنت الحق , وقولك الحق , ولقاؤك حق , والجنة حق , والنار حق , و النبيون حق , ومحمد حق , اللهم لك أسلمت , وبك آمنت , وعليك توكلت وإليك أنبت , وبك خاصمت , وإليك حاكمت , فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)) .

قال تعالى : {قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم} [الأنعام : 14] وقال تعالى : {أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً } [الأنعام : 114] وقال : {قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون * ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك و لتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين } [الزمر : 64 - 66] وقال تعالى {قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قل إن صلاتي و نسكي ومحياي ومماتي لله رب العلمين * لا شريك له وبذلك

أمرت وأنا أول المسلمين * قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها} [الأنعام : 161 - 164] .

وهذا التوحيد كثير في القرآن ؛ وهو أول الدين و آخره , وباطن الدين وظاهره , وذروة سنام هذا الدين , لأولى العزم من الرسل , ثم للخليلين : محمد وإبراهيم , صلوات الله وسلامه عليهم , فقد ثبت عن النبي من غير وجه , أنه قال : ((إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً)) .

وأفضل الرسل بعد محمد إبراهيم , كما ثبت في الحديث عنه , أنه قال خير البرية ((إنه إبراهيم)) وهو الإمام الذي جعله الله إماماً , وجعله أمة , والأمة القدوة الذي يقتدى به , فإنه حقق هذا التوحيد , وهو الحنيفية ملته , وقال تعالى : {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومه إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبد بيننا وبينكم العداوة و البغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أبنا وإليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم * لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر }الآية [الممتحنة : 4 - 6].

وقال تعالى : { وإذا قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبيه لعلهم يرجعون }الآية [الزخرف : 26-28]وقال عن إبراهيم أنه { قال يا قوم إن برئ مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين * وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً }الآية [الأنعام : 78 - 80] .

وقال رحمه الله تعالى : ومحبة الله وتوحيده هو الغاية , التي فيها صلاح النفس إلا في ذلك , و بدونه تكون فاسدة , وهذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسول , قال تعالى : { ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت } [النحل : 36] وقال تعالى : { فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين } [الروم : 30 – 31].

فالغاية الحميدة , التي بها كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم : عبادة الله وحده , وهي حقيقة لا إله إلا الله , وكل من لم يحصل له هذا الإخلاص , لم يكن من أهل النجاة والسعادة , كما قال تعالى : { إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء } [النساء : 116]فمن آمن بأن الله رب كل شيء و خالقه , ولم يعبد الله وحده , بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه , و أخشى عنده من كل ما سواه , وأرجى عنده من كل ما سواه , بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب , بحيث كما يحب الله , ويخشاه الله , ويرجوه كما يرجو الله , ويدعوه كما يعو الله , فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله , ولو كان مع ذلك عفيفاً في طعامه ونكاحه ، وكان حليماً شجعاً انتهى .

وقال العلامة ابن القيم , رحمه الله تعالى – بعد ذكره الشرك في الربوبية – النوع الثاني : أهل الإشراك بالله في إلهيته , المقرون بأنه وحده رب كل شيء , و مليكه وخلقه , وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين , ورب السماوات السبع ، ورب العرش العظيم ، وهم مع يعبدون غيره , ويعدلون به سواه في المحبة والطاعة والتعظيم , وهم الذين اتخذوا من دونه أنداداً , فهؤلاء لم يعرفوا { إياك نعبد} حقه , وإن كان لهم نصيب من { نعبدك} لكن ليس لهم نصيب من { إياك نعبد} المتضمن معنى لا نعبد إلا إياك , حباً وخوفاً ورجاء , وطاعة وتعظيماً فـ{ إياك نعبد} تحقيق لهذا التوحيد , وإبطال للشرك في الإلهية , كما أن { إياك نستعين} تحقيق لتوحيد الربوبية , وإبطال للشرك به , وكذلك قوله : { اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم}[الفاتحة : 6- 7] فإنهم أهل التوحيد , وهم أهل التحقيق { إياك نعبد و إياك نستعين } .

وأما أهل الإشراك , فهم أهل الغضب والضلال , فإن هذا الانقسام ضروري , إلى عالم بموجبه , وهم أهل النعمة , وعالم به معاند له , وهم أهل الغضب , وجاهل به , وهم الضالون , وهذا الانقسام إنما نشا بعد إرسال الرسل , فلولا الرسل لكانوا أمة واحدة , فانقسامهم إلى هذه الأقسام مستحيل بدون هذه الرسالة , انتهى .

والمقصود من هذه المقدمة , العلم بأن التوحيد الذي بعث الله به رسله , غريب في الناس جداً ، وأكثرهم لا يعرف حقيقته , ولا يعرف الشرك الأكبر المنافي له , وغاية ما عندهم هو أن يعرف أن الله تعالى ربه و خالقه , وخالق جميع المخلوقات ورازقهم

والمتصرف فيهم , وقد عرفت مما سلف : أن أكثر الأمم من أعداء الرسل , يعرفون ذلك , ويقرون به , كما أقرّ به كفار قريش لما بعث الله محمداً , وهذا مقر في القرآن أتم تقرير .

وأما توحيد الإلهية , الذي هو مضمون لا إله إلا الله , الذي دل عليه القرآن , من أوله إلى آخره , فالأكثر لا يعرفونه , مع أن سور القرآن الكريم مشحونة ببيانه , كقوله تعالى : {ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يجبونهم كحب الله }[البقرة : 165] وقوله {له دعوة الحق والذين و الذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء}الآية [الرعد : 14] {وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه}الآية [الإسراء : 23] وقوله : {فاعبد الله مخلصاً له الدين* ألا لله الدين الخالص} [الزمر : 2 - 3] وقوله : {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين}الآية [البينة : 5] وقوله : {وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً } [الجن :18] .

وقوله : {ومن اضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة}الآية [الأحقاب : 5] وقوله {والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير}الآية [فاطر : 13] وقوله : {وإن إلهاكم لواحد* رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق} [الصافات : 4 - 5] وقوله : {ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به}الآية [المؤمنون : 117] وقوله : { وإذا قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين * } الآية [الزخرف : 26-28] وقوله : {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلى نوحي إليهم أنه لا إله إلا أنا فاعبدون } [الأنبياء :25] إلى أمثال ذلك مما لا يحصى في القرآن كثرة في بيان هذا التوحيد , وما ينافيه من الشرك بالله , الذي هو أعظم ذنب عصي الله به , كما قال تعالى : { إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار} [المائدة : 72].

فإذا تأملت القرآن , وجدته قد احتج على المشركين فيما جحدوه , من توحيد الإلهية , بما أقروه به من توحيد الربوبية , كما قال تعالى : {قل من يرزقكم من السماء والأرض}إلى قوله : {فسيقولون الله فقل أفلا تتقون} [يونس : 31] وقوله : {قل الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون } الآيات[المؤمنون : 84- 89] فإذا أقروا أن الله رب كل شيء و مليكه , وأنه المتصرف في جميع خلقه , لزمهم أن يعبدوه وحده , فإن الإقرار بهذا التوحيد , يستلزم الإقرار بالنوع الآخر , ولا بد منهما جميعاً .

وأما الثالث من أنواع التوحيد , فهو : أن تصف الله تعالى بما وصف به نفسه , ووصفه رسوله , على ما يليق بجلال الله , إثباتاً بلا تمثيل , وتنزيهاً بلا تعطيل , فإن صفات الرب تعالى وأسماءه , تدل على كمال الرب تعالى , وتنفي عن الله ما نفى عن نفسه , ونفى عن نفسه , ونفى عنه رسوله ﷺ , من كل ما ينافي كمال حياته و قيوميته , وكما غناه , كما نزه الله عنه نفسه , ونزهه عنه رسوله ﷺ كما قال : {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير } [الشورى : 11] وقوله تعالى : {قل هو الله أحد* الله الصمد* لم يلد* ولم يولد* ولم يكن له كفواً أحداً } [الإخلاص].

وكما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح ((إن الله لا ينام , ولا ينبغي له أن ينام)) الحديث ونحوه هذا مما نزه الله عنه نفسه , ونزهه عنه رسوله ﷺ كثير في الكتاب والسنة , فالمهديون المؤمنون : يثبتون ما أثبته الله ورسوله , من معاني أسمائه , وصفاته ، على ما يليق بجلاله , وينفون عنه مشابهة المخلوقين , وسمات المحدثين , وينفون عنه ما نفى عن نفسه , ونفاه عنه رسوله ﷺ من كل ما لا يليق به , والله أعلم .

فما عز من يعرف حقيقة التوحيد , بل ما أعز من لا يعادي من عرفه ودعا إليه , فلقد عم الجهل بالتوحيد , حتى نسب أهله إلى الابتداع , ونسب من أنكره إلى الإتباع .

وما أحسن ما قال العلامة ابن القيم , رحمه الله تعالى , لما ذكر حديث ((بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ)) بل الإسلام الحق ، الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه اليوم , أشد غربة منه في أول ظهوره , وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة , مشهورة معروفة , فالإسلام الحقيقي فينا , غريب جداً , وأهله غرباء بين الناس .

وكيف تكون فرقة واحدة , بين فرق لهم أتباع ورياسات , ومناصب وولايات , لا يقوم لها سوق إلا في مخالفة ما جاء به الرسول ﷺ فإن نفس ما جاء به يضاد أهوائهم و لذاتهم , وما هم عليه من الشبهات , التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم , والشهوات التي هي غاية مقاصدهم وإرادتهم , فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى

الله , على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء , الذين قد اتبعوا أهوائهم , وأعجب كل منهم برأيه , فإذا أردت معرفة الإعراض عن الذين , تعلماً وعملاً, فتأمل ما هم عليه , فالله المستعان .

واعلم : يا من له عقل ونور , يمشي به في الناس , أني تأملت ((الورقة)) التي قدمت الإشارة إليها (((أي في الصفحة 204))) وهي لحمد بن علي المرائي , فإذا هو قد حشاها بالرعونات , والحماقات , التي هي من نتائج الجهل الصميم , والعقل غير المستقيم , فإذا نظر فيها العاقل , علم أنها لا تصدر إلا من جاهل معجب بنفسه , لإقامتها بين جهل العوام , فإن أكثرهم لا يميز بين الصحيح من السقيم من الكلام , فلو كان ما أبداه من أساجيعه , من وراء كفاية وعن علم ودراية , لكان أحرى بمراجعة الصواب , والرجوع عما أخطأ فيه من الخطاب , وقد قال بعضهم شعراً :

ولو كان هذا من وراء كفاية   لهان ولكن من وراء تخلف

فأعجب لقوله : أما بعد : فيقول العبد المسترشد للعلم والعمل , لا للمراء والجدل .

فالجواب : تأمل أيها المصنف ما بعد هذا من كلامه , تجده مناقضاً لما قال , مشتملاً على المراء والجدال , كحال أمثاله من أهل الأهواء , ويخبط على أثرهم خبط عشواء , وقد تضمنت رسالته من الاحبولات للجهال , والتلبيس على من عقولهم كعقول الأطفال .

فمن ذلك : أنه أكثر الحط على من يقول على الله بلا علم , ولا شك أن ذلك من أكبر الذنوب , وأعظم المثالب والعيوب , ولكنه اتزر بما عابه من ذلك , وارتدى في آخر مقاله والابتداء , وهكذا حال من لا علم لديه , ولا دراية له تنسب إليه , فتراه يعيب أمراً وهو يتقلب فيه , فتارة يظهره , وتارة يخفيه , وكل ينضح بالذي فيه ، فتأمل ما سيأتيك من جوابه , ترى عجباً .

ثم إنه قال : والمسألة المشار إليها , و المسؤول عنها , هي التي غصت بها الحناجر , واسبلت على الخدود دموع المحاجر , وهي قول الجهال الطغام : من أقام ببلد قد استولى عليها العساكر , ولا عنها هاجر , فهو كافر .

فالجواب : أن هذا قول مختلق , ولا نعلم قائلاً به على الإطلاق , كما زعم صاحب الورقة , وهذا من بهرجه وزبرجه وتهويله , أسوة أمثاله ممن يفترى على المسلمين , ويقوِّلهم ما لم يقولوا , ليدفع بهذا عن نفسه الشناعة , وليس بنافعه شيئاً , بل هو عين الضرر عليه , لأنه تشبث بما لا يجدي , وليس عند أهل الأهواء إلا التلبيس نعهم حق يعتمد عليه , ولا برهان لهم تطمئن نفوسهم إليه فترى

أحدهم ضيق الصدر والبال , لأن بضاعته إنما حقيقتها الشكوك والخيال .
بخلاف صاحب الحق , فإن معه من البصيرة والعلم واليقين , ما يدفع الشك والإلباس , ويهون عليه مؤنة المعارضين من الناس , وأكبرهم المؤمن ما بينه وبين ربه ,
يرجو رحمته ويخاف عقوبة ذنبه ,كما قال تعالى : {والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون}الآية [المؤمنون : 60] يسير إلى الله بين مشاهدة منة من الله عليه , ومطالعة عيب نفسه ((أبوء لك بنعمتي علي , و أبوء بذنبي)) .
وأما الفاجر : فقلبه خال من خشية الله , آمن من مكر الله , يمضي في الغفلة والمعاصي , قدماً قدماً , فيا عجباً من صاحب هذه الورقة ! ما الذي يؤمنه ؟ قد تلطخ بما تلطخ به , والمعاصي بريد الكفر , وكان الواجب عليه أن يغص من العبرات , ويسبل الدموع في الخلوات و الجلوات , على ما فرط فيه من الطاعات , ووقع منه من الفرطات .
فاهتمامه من نفسه لنفسه , أولى من الاهتمام بما قيل أو يقال : فلو صح عن أحد لكان فيه إجمال , ويتطرق إليه الاحتمال , على أنه ليس من قبيل المحال , الذي لا ينسب إلا إلى الطغام و الجهال ؛ فأين الأسباب المؤمنة لهذا المسكين , من أن يقع في زيغ الزائغين , وطريق الأئمة المضلين ؟ وقد صح عن النبي أنه قال : ((أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)) .
وأما شتمه لخواص من أهل الهجرة والدين , وتسميتهم بالجهال الطغام , فهو دليل على إعجابه بنفسه ورضاه بعمله ؛ وذلك من أكبر الذنوب , وأعظم العيوب ، فإنه من تدبر القرآن , وتفكر فيما قصه الله تعالى عن أهل الكتاب , وأمثالهم من أهل الفهم والرأي , وأنهم تركوا الحق الذي بعث الله به من أهل الفهم والرأي , وأنهم تركوا الحق الذي بعث الله به رسوله بعد ظهوره , واختاروا لأنفسهم أسباب الردي والهلاك , ولم ينفعهم الله بعلمهم , ولا برأيهم وفهمهم , خاف على نفسه من أن يزيغ كما زاغوا , وأن يضل كما ضلوا ؛ وهذا إنما يحصل بتوفيق الله ورحمته لعبده .
وصاحب هذا الكلام , قد نسي ما وقع منه من المداهنة و الموادة , لأرباب البغي والعدوان , على أهل الإسلام والإيمان , والصد عن سبيل الله ، فأعظم بها من ذنوب , ومثالب وعيوب , وما ذكرنا من الواقع , من كثير من أعيان أهل نجد , لا يمتري فيه من في قلبه أدنى حياة .

وظاهر حال المعترض : أنه لما جهل حقيقته هذا الذنب العظيم , عده من أنواع الواجب , والجائز , والمكروه ؛ وكلامه في ورقته يدور على هذه الثلاثة , فلذلك استوحش مما أنس به المسلمون , وأنس بما استوحش منه العارفون , فلو تصور الواقع منه , لسالت على الخد منه دموع المحاجر , وغصت من مخافة الوعيد تلك الحناجر , كما دل عظيم ذلك الذنب الكثير ، من الآيات والأحاديث و البينات

واعلم : أن هذا المغرور , لما كذبته ظنونه التي قعدت به هن الواجب الهجرة والجهاد , وتبين انه أخطأ سبيل الهدى والسداد , وعلم أن المسلمين قد ميزوه بحاله , وقبيح فعاله , بادر إلى التشكي والتهويل , والتباكي والعويل , وحاول قلب الحقائق , فاستهجن الصدق والمعروف , واستحسن الباطل , لكونه عنده هو المألوف , فأعظم بها عقوبة أطفأت نور العقل , وأعمت البصيرة ، فصاحبها في ظلمات الجهل والريب .

ولما قال رجل لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه : هلكت إن لم آمر بالمعروف , وأنه عن المنكر ؛ فقال ابن مسعود : هلكت إن لم يعرف قلبك المعروف ، و ينكر المنكر ؛ قال بعض السلف : أنتم تخافون الذنوب , وأنا أخاف الكفر , يا ربنا نسألك الثبات على الإيمان .

ومما يجب أن نعلم : أن الله تعالى فرض على عباده الهجرة , عند ظهور الظلم والمعاصي , حفظاً للدين ، وصيانة لنفوس المؤمنين عن شهود المنكرات , ومخالفة أهل المعاصي والسيئات , وليتميز أهل الطاعات والإيمان , عن طائفة الفساد والعدوان , وليقوم عَلَمَ الجهاد , الذي به صلاح البلاد والعباد ؛ ومن المحال : أن تحصل البراءة من الشرك , والظلم والفساد , بدونها .

ومن لوازم ترك الهجرة غالباً : مشاهدة المنكرات , ومداهنة أرباب المعاصي والسيئات , و موادتهم ، وانشراح الصدر لهم , فإن الشر يتداعى ويجر بعضه بعضاً , فلا يرضون عمن هو بين أظهرهم بدون هذه الأمور , ولا بد من رضاهم , والمبادرة في هواهم .

ثم إنه قال قولاً ينبئ من له أدنى معرفة : أن هذا لا يصدر إلا ممن هو غريق في الجهالة , قد عري من المعقول والمنقول ؛ وذلك قوله : إن الله قَّدم حرمة ابن آدم على حرمته , و إباحة ما حرم عليه , من أكل الميتة , إذا خاف على نفسه الضرر .

ووجه خطئه وجهله : أنه جعل ذلك أصلاً, قاس عليه ترك الهجرة , وفي زعمه أنه اضطر إلى تركها , كما اضطر إلى الأكل من

الميتة , من خاف على نفسه التلف ؛ فأقول : لا يخفى ما في هذا القياس من الفساد ، وذلك من وجوه .
منها : أنه في مصادمة نصوص الكتاب والسنة , التي دلت على وجوب الهجرة , على مَن له قدرة عليها , وإن كان يتوقع بها القتل والموت , كما أنه لا يترك الجهاد خوفاً من القتل , كما قال تعالى : {فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لكفرن عنهم سيئاتهم و لأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب } [آل عمران : 195] وقوله تعالى : {والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين}الآية [الحج : 58] .
فلم يجعل الله تعالى هذه الأمور , التي قد تقع للمهاجر ، عذراً عن الهجرة , لأن الهلاك في الهجرة , والجهاد , هو السلامة , فإنه شهادة , والشهداء {أحياء عند ربهم يرزقون* فرحين بما آتاهم الله من فضله}الآية [آل عمران : 169 - 170] وقد يحصل للمهاجر ما يحبه , من حسن العاقبة في الدنيا , مع ما يرجوه في الآخرة , كما قال تعالى : {ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة }الآية [النساء : 100] .
ونظير ترك الهجرة خوفاً من الفقر أو القتل : مداهنة أهل المعاصي , خوفاً من أذاهم , وقد قال تعالى في حقهم : { ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين }الآية [العنكبوت : 10] وهذا الذي جعل فتنة الناس كعذاب الله ، قد يدعي أن الضرورة دعته إلى ذلك لو كانت عذراً ، وقد علمت : أن ترك الهجرة عرضة لذهاب الدين , وذهاب الدين , هو هلاك النفس السرمدي { قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين} [الزمر : 15] هذا في تركهم الهجرة .
وأما الهجرة : فإن الغالب على أهلها السلامة والعز والتمكين , كما جرى ذلك لرسول الله وأتباعه سلفاً وخلفاً , وبها يحصل الجهاد , وتعلوا كلمة الله , ويعمل في الأرض بطاعة الله , ومصالح الهجرة في الدنيا أكثر من أن تحصر , كما قال تعالى : { والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر} [النحل : 14] فبطل هذا القياس من وجهين .

الأول : أنه مصادمة النصوص الثابتة , والقياس في مصادمة النص , فاسد الاعتبار عن العلماء قديماً وحديثاً , فإن القياس إنما يصار إليه عند الضرورة إليه إذا عدم النص , ولم يوجد للحكم دليل في الكتاب والسنة , لا نصاً ولا ظاهراً , فحينئذ يجوز عند بعض العلماء , لدعاء الضرورة إليه , وله شروط ومفسدات , وله أنواع أربعة لا يعرفها هذا المعترض , وأنى له بمعرفة الصحيح منها والسقيم , والجائز والممتنع , مع قصر الباع , وعدم المحصول و الإطلاع .

الوجه الثاني : عدم الجامع , ووجود الفارق , فإن الحكمة في إباحة تناول لقمه من الميتة إذا اضطر إليها , قد أبيحت له في تلك الحال , لأن لأكل واجب , صيانة للنفس عن الهلاك , طاعة لله , مطلوب لما يفضي إليه ذلك , من التقوى على أداء الفرائض والطاعات .

قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله تعالى : ومن المحرمات ما يباح عند الضرورة , كالدم والميتة , فهذه في حال الإباحة ليست محرمة أصلاً , وليس له أن يعتقد تحريمها حينئذ , وإنما تنازع العلماء , هل السبب الحاظر لها موجود وقت الضرورة , وأبيحت للعارض الراجح , أو السبب الحاظر زائل , وهذا مبني على مسألة تخصيص العلة ؛ فمن قال : إن العلة تخصص , يقول : إن علة الحظر قائمة , ولكن تخلف حكمها لمانع , ومن قال لا تخصص , قال : إن علة التحريم لا توجد مع عدم التحريم , والنزاع لفظي .

قال رحمه الله : فإن الأكل والشرب واجب , حتى لو اضطر إلى الميتة , وجب عليه الأكل عند عامة العلماء , لأن العبادة لا تؤدى إلا بهذا , وما لا يتم الواجب إلا به , فهو واجب , انتهى .

قلت : وهذا موجود في الهجرة وأولى : لأن العبادة لا تؤدى إلا بها , ولا يقوم الدين والعمل به إلا بالهجرة , فبالهجرة يحفظ المرء دينه , ويتمكن من العمل به , ويعادي ويوالي فيه , وغير ذلك من المصالح الدينية , التي تفوت الحصر , فلو احتجنا إلى القياس , لكان هذا من قياس الأولى , عكس ما عند صاحب الورقة , فإن ضرورة العبد إلى الهجرة فوق كل ضرورة , ولو كان فيها تلف النفس والمال , فالعبد مضطر إليها عند الحاجة إليها , أعظم من ضرورته إلى الطعام والشراب .

ثم اعلم : أنه من كبير جهله , أخذ يقيس ترك ما وجب فعله , على فعله , فقاس الترك على الفعل , وقاس المحرم على الواجب , وهذا أفسد شيء وأبعده عن القياس , فالعكس والحالة هذه , أشبه بالقياس صورة ومعنى , فتأمله فإنه يطلعك على جهل

هذا الرجل , فالعارف : يلتمس له العذر من حيث أنه جاهل , ولولا جهله لكانت هذه فرية منه عظيمة على دين الله .
ومن المعلوم عند من له أدنى مسكة من عقل ومعرفة : أن الهجرة من أعظم فرائض الدين , وهي اصل وقاعدة من قواعد الإسلام , التي ينبني عليها الكثير من الأحكام , ومن جهله أنه لم يميز بين الضرورة والضرر , كم قد عرفت من كلامه الذي أسلفته ؛ ومن المعلوم عند من له بصيرة ممنوعة من أصلها .
فغاية ما في الهجرة : بان فيها مشقة في المبادئ على النفس , من جهة مفارقة المألوفات , من الوطن أو المال , أو غيرها من الأصناف الثمانية , المذكورة في أول سورة براءة , وهذا شأن الشرائع , كالجهاد فإن فيه مشقة , كما قال تعالى : {كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحب شيئاً وهو شر لكم } الآية [البقرة : 216] .
ولم يعذر الله تعالى ناساً تخلفوا عن الجهاد في غزوة تبوك , بما فيها من المشقة , حتى قال الله فيهم شر ما قال لأحد , فقال : { سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون } [التوبة : 95] ومن المعلوم : أنه ليس في ترك الجهاد من المفاسد في الدين ما في ترك الهجرة , وأكثر منها , كما لا يخفى على ذوي البصائر والفهم , وكان الجهاد من ثمرتها ومصالحها .
قال شيخ الإسلام بن تيمية , رحمه الله تعالى : والشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها , وتعطيل المفاسد وتقليلها , فهي تأمر بما يترجح مصلحته , وإن كان فيه مفسدة مرجوحة , كالجهاد , وتنهى عما ترجحت مفسدته , وإن كان فيه مصلحة , كتناول المحرمات من الخمر وغيره ؛ ولهذا أمرنا الله : أن نأخذ بأحسن ما أنزل إلينا من ربنا , والأحسن أمرنا الله : أن نأخذ بأحسن ما أنزل إلينا من ربنا , والأحسن إما واجب أو مستحب , قال تعالى : {واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم } [الزمر : 55] فأمر بإتباع الأحسن والأخذ به , قال تعالى : { فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب } [الزمر : 17 - 18] فاقتضى أن غيرهم لهم يهده , انتهى .
وتأمل : ما وقع فيه التاركون للهجرة , من سوء الحال في الدين والدنيا , فيا لها من عبرة ما أبيها لمن اعتبر , والحمد لله الذي أنقذ من شاء من عباده من المهالك برحمته , وأهلك من شاء بعدله }

ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة وإن الله لسميع عليم} [الأنفال : 42] .

فإذا عرفت ذلك : فأقول : عجباً لهذا المفتري المغرورة , كيف تجسَّر على الخوض في أحكام الله ودينه , بضرب الأمثال , و الأقيسة الفاسدة , وهو لا يعرف القياس وشروطه , والمقبول منه والمردود , بل ولا يعرف أنواعه , كقياس الأولى , والعلة , والدلالة , والشبه , والمخالفة ؛ ولا يعرف ممن لا يجوز منه , ومن يجوزه من العلماء عند الضرورة , من لا يجوزه منهم مطلقاً .

ومن أنكره من علماء السلف ، كجعفر بن محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهما فأنه أنكره على أبي حنيفة رحمه الله ، كما هو معروف عنه عند العلماء , يروونه عن ابن شبرمة , أنه قال لأبي حنيفة : **اتق الله ولا تقس ، فإنا نقف غداً نحن ومن خالفنا بين يدي الله تعالى , فنقول : قال الله , قال رسوله ؛ وتقول أنت وأصحابك : رأينا وقسنا ، فيفعل الله بنا وبك ما شاء .**

وعن ابن عباس : لا تقيسوا الدين , فإن الدين لا يقاس ؛ وأول من قاس إبليس ، أخرجه الديلمي ؛وقال ابن سيبرين : القياس شر ، وأول من قاس إبليس , وإنما عبدت الشمس والقمر بالمقاييس ؛ وقال الأمام أحمد ,رحمه الله تعالى : أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس .

وقال شيخ الإسلام بن تيمية قدس الله روحه : إنما المتبع في إثبات أحكام الله , كتاب الله , وسنة رسوله وسبيل السابقين الأولين , لا يجوز إثبات حكم شرعي بدون هذه الأصول الثلاثة , نصاً أو استنباطاً بحال .

وأما الأقيسة الفاسدة , فإنها أكثر ما عند أهل الضلال , وأول من قاس إبليس ؛ وقال : إن اليهود والنصارى عندهم من الحكايات , و القياسات من هذا النمط كثير , انتهى كلامه رحمه الله .

والمقصود : أن يعلم المسلم أن بذل النفوس في طاعة الله ومرضاته , أمر مطلوب للرب تعالى من عبده , ليكون الدين كله لله , فمن رغب بنفسه عن ذلك , وآثر مرادها وراحتها وشهوتها , على مراد ربه , وإقامة دينه , وطلب مرضاته , فقد عرض نفسه لمقت الله وعقابه , وحرم نفسه ما حصل للمؤمنين المتقين , من جزيل ثوابه ؛ فلا يرجونّ عبد إلا ربه , ولا يخافنّ إلا ذنبه , ومن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه .

ثم إن هذا المغرور المسكين قال : وأباحه الكفر إذا أكره عليه , قال عز من قائل { من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره} [النحل : 106] نزلت في عمارة بن ياسر , أخذه المشركون , فلم يتركوه حتى سب النبي , فشكا ذلك إلى النبي قال : كيف تجد قلبك قال مطمئن بالإيمان .

فالجواب – وبالله التوفيق – أن نقول لا يخفى أن هذا الرجل , ادعى لنفسه أمراً لا وجود له ولا حقيقة , واستدل بدليل هو في الحقيقة عليه لا له , وذكر أمراً مجملاً مبهماً , تشبيهاً على العامة , ليلبس عليهم أمر دينهم ؛ وفي ضمنه : إنه أقر على نفسه بما صدر منه , مما لا يحبه الله ويرضاه , غير أنه اعتذر عن نفسه بالإكراه .

ومن له أدنى مسكة من عقل وتمييز , يعلم أنه لا عذر لهذا الرجل فيما قد صدر منه ، فإن دعواه الإكراه ممنوعة , لأنه إن كان على الإقامة عندهم , فهذا باطل قطعاً , لأنهم لم يحسبوه ولم يجعلوه في وثاق , ولم يجعلوا على كل نقب من نقوب القرية حرساً , يمنعه الخروج منها , ولا جعلوا على طرقاتها رصداً , والمناهل قريب , وفيها القبائل والفرار بالدين واجب ؛ فأين الإكراه ؟ هذا وقد حصل منه الإقبال و الإدبار , والتصدر والافتخار , ما هو معلوم عند من يعرف هذا الشخص بالاضطرار ؛ فأين حال هذا وأمثاله من حال عمار ؟ رضي الله عن عمار ، فإنه تبرأ من المشركين وسبهم , وسب دينهم و معبوداتهم , فلذلك تصدوا له ولأهله بالعداوة الشديدة , وما ثم قرية ولا قبيلة على الإسلام , فجعلوا يضربونه أشد الضرب , ويعذبونه أشد العذاب , وحبسوه في بئر ميمون , وقتلوا أباه وأمه .

وكان النبي إذا مر بهم يقول ((اصبروا يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة)) ومع هذا وغيره , لم يقع منه إلا القول دون الفعل , وأنتم سارعتهم بلا إكراه , وقتلتم و فعلتم , تقرباً إليهم واختياراً , من غير أن يكون منهم طالب لما فعلتموه , فما طلبوا منكم ذلك , ولا امتنعتم , ولا أكرهتم عليه , فأين أنتم وعمار ؟! فهو وأنتم في طرفي نقيض ؛ شعراً :

سارت مشرقة وسرت مغرباً   شتان بين مشرق ومغرب